رواية

العنيدة والذئاب

طبعة منقحة

صلاح شعير

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشروالتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولي ٢٠١٨ م

الكتاب : العنيدة والذئاب

المؤلف : صلاح شعير

تصنيف الكتاب : رواية

تصميم وإخراج : أمير شعير

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٨٥٣١ / ٢٠١٧

الترقيم الدولى : 7 - 583 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ ـ ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلي الباحثين عن حلم السعادة

١- أطلال الطفولة

تسلل الصبح إلى غرفة «**ليلى**» الكائنة بشقة رقم ٨ بالدور الثالث بالعقار رقم ٤٥ هـ بشارع «**ربيع الجيزي**» ، **وذلك** في يوم السادس من أكتوبر ١٩٨١ م، دخل أول شعاع ممزوجًا بشقشقة العصافير من فوق شجرة عتيقة تطل على النافذة، فشاهد النهار مخاض الأمل يتدلى من صدرها، ويقذف بالأنوار تتدفق كالضوء ينبعث من رحم الشروق، كاد اليوم الجديد أن يتراجع خجلًا من بهاء الفتاة، فقد لمح اليوم الجديد في عينيها السحر يعلن عن مبعث امرأة فتية في عالم الجمال، وتيقن القدر بأنها سوف تدك بأنوثتها قلاع الرجال، فتصبح هشيمًا تذروه الرياح.

تستيقظ الفتاة والأمل يطرز وجهها، فيسري في روحها أريج الصبا، وترى فوق قلبها أسرابًا من الأماني، برقة النسيم تلتفت ليلى إلى الطائر وهو على النافذة وتبتهج أكثر لسماعه، وتكاد أن تعانقه لتحلق معه في الفضاء الفسيح، تود أن تنثر حلمها فوق الحياة كأنه المطر الذي يخصب الأرض بالربيع، وفي لحظة شوق يصعد الخيال بسحابة صباها بين أرجاء السماء؛ لتبحث عن رجل تغمره بفيض العطاء؛ حتى تثمر بساتين الحب في وجدانها بالأزهار الجميلة، تغمض عينيها مبتسمة مستسلمة للنوم مرة أخرى، فما أحلى النوم في غرفة البنات بمنزل أبيها مراد فهمي!.

بعد نوم عميق استيقظت «**ليلى**» في الحادية عشرة صباحًا؛ لتجد نفسها فجأة بين وميض الذكريات، تبدل حالها لتهبط من آفاق الأحلام الوردية ،فسمعت في الأعماق بعض الأصوات ممزوجة بالهواجس، فاعتدلت لتسند ظهرها علي حافة السرير، كانت كالبدر ليلة تمامه، جسدها متناسق، وجهها يحمل معالم الحسن الصريح، يخرج من عيونها سحر لا يقاوم، ولا يصد، ولا يرد، وبدلًا من أن تريح نفسها من عناء المذاكرة وأثقال الثانوية العامة، تجد نفسها تغوص في عالم الطفولة البعيدة، عيناها

مثبتتان على «**عروسة**» فوق منضدة صغيرة، وفي أوقات كثيرة كانت تنتابها حالة عصبية غريبة كلما نظرت إليها، فيضرب قلبها القلق، ترى لماذا هذا التوتر؟ وما سر ارتباطها بهذه اللعبة التي لا تتكون سوى من قطعة من قماش محشوة بالقطن، ولماذا تصبح تلك العروس محور تفكيرها؟

فمنذ أن كان عمرها ست سنوات، وهذه العروسة هي همزة الوصل بينها وبين بواكير الطفولة الأولى، كانت محل الصراع المشتعل طوال سنوات بينها، وبين أختيها ريهام، ومنى، والأم في نهاية كل شجار تنهرها بشدة،وتضربها وتنتزعها عنوة منها، وتعطيها لريهام، فتكسر قلبها الشغوف باللعبة.

تذكرت صوت البكاء الذي مازال يملأ أذنيها، ظهرت على وجهها علامات الغضب، الألم يعتصرها من وخز الذكريات، فعندما كانت الأم تتحول عنها؛ لتدلل أختها «**ريهام**»، كان ذلك يشعل في صدرها غيرة طفولية قاتلة، وعندما جاءت أختها التالية «**منى**» استحوذت هي الأخرى على بقايا الحنان لدى الأم.

تذكرت طفولتها، وأخذت تغوص في الحزن حتى أخمص قدميها، لم تجد بالماضي وسيلة للفت الانتباه سوى افتعال أي موقف لجذب نظر الأسرة نحوها، تارة تبكي بدرجة مزعجة، وتارة تعصى الأوامر، ربما كانت الأم المسحوقة بشئون الحياة؛ لا تعيرها اهتمامًا، وتعاقبها بالزجر والضرب أحيانًا، فولَّد لدى «ليلى» شعورًا بالقهر فكانت تتحدى التجاهل بلفت الانتباه، إما بأفعال عدوانية، أو بعدم المذاكرة، أو مخالفة نصائح الأسرة.

ولم يكن انشغال الأم عنها في عقل الصغيرة إلَّا ظنًّا، فلا يمكن لأمٍّ أن تنسى فلذات أكبادها مهما كثرت أعدادهم، ولكن الصغير في بواكير الطفولة أنَّى له أن يعي ذلك، فكانت ليلى تفسر تدليل الأم للصغريتين على أنهما مفضلتان عليها،

فنمت لديها بؤرة الحرمان في اللاشعور، ولم تنتبه الأم أن شوق الأطفال إلى حنانها، كشوق الذي يحتضر من شدة العطش في فلاة قاحلة يبتغي الماء ليحيا، والأمهات كالماء الزلال عندما تقطرن الحنان قطرًا في أرواح أبنائهن تترعرع الصيبية في بحور الأمان، فيفيض دفء المشاعر كأنه ظلال سرمدية ترافق الأبناء مدى الحياة.

جرّاء غفلة الأم غير المقصودة، كان التحدي لدى «**ليلى**» ينمو بصورة مطردة، وفجأة برزت إلى ذهنها صورة العروسة التي كانت تتشبث بها وهى في التاسعة من عمرها، وتذكرت أمها تحاول انتزاعها منها، كي تعطيها لـ«**ريهام**»، كانت «**ليلى**» ترفض ترك العروسة من يدها، والأم مصممة على أخذها، ومشكلة الأم أنها كانت ترى أن «**ليلى**» أكبر وأعقل من أختيها الصغيرتين، ربما لم تدرك سهوًا أن «**ليلى**» أيضًا مازالت طفلة، تريد أن تلعب وتمرح.

في حلبة صراع الصغار على لعبة بسيطة، كان الأمر يتطور كل مرة إلى العقاب بالضرب، وحتى اليوم ما زالت «**ليلى**» تتذكر الأب، كان رجلاً تقليديًا، طويلاً نحيلاً، يرتدي نظارة طبية تجبر ضعف بصره، أصلع سقط شعره إلا بعضه، علي عكس أمها «**هند**» التي كانت ودودة، شبه ممتلئة، متوسطة الطول، فائقة الحسن، خفيفة الظل، ودلالها يأسر القلوب.

يومها جاء الأب من غرفته منزعجًا مفزوعًا من بكائها الذي بلغ حدًّا لا يطاق، أفسد عليه تصحيح كراسات اللغة العربية للتلاميذ، فتدخل معلنًا جام غضبه، حاول تهدئتها فلم تصمت، عاد لحجرته ليحضر قطعة جلدية، وانهال عليها ضربًا وهى متشبثة بالعروسة لا تريد تركها رغم ارتفاع وتيرة الضرب، الذي بدأ يتصاعد بسبب شدته، وامتزج صوت ارتطام الحزام بجسدها

مع البكاء والصراخ، والأم تحاول انتزاع العروسة من يدها دون جدوى، كانت قابضة عليها بيدٍ مستميتة، غير مبالية بما يهوي عليها من ضربات متتالية، كانت الضربات كزخات المطر في هطولها، وكالسياط في وقعها على الجسد الرقيق، كانت الطفلة تقبض علي لعبتها كمن تقبض على الحياة خوفًا من أن تفر منها.

يقف أخوها «**شكري**» يتمزق من أنَّاتها، ورغم أنه يكبرها بخمس سنوات إلا أنه لا يقوى على الدفاع عنها، كان يتألم لبكائها أشد ما يكون الألم، ولكن التدخل لإنقاذها مغامرة كبري، سوف ينال الضربات القاسية بدلًا منها، ورغمًا عنه قفز منحيًا عليها، غير آبه بما سيحدث واحتضنها، خوفًا عليها خافضًا عينه في وجه أبيه يتوسل منه العفو، استيقظ الأب من غفوته على بكاء الصبي يتلقى الضربات مضحيًا بنفسه لإنقاذ أخته، فوجد ولده رقيقًا في الاستعطاف، مهذبًا في التوسل، هدأت ثورته حياءً من الابن الذي فاضت شهامته بعلامات الرجولة المبكرة، كان يحمي أخته من الضرب، بالطاعة والبر، التوسل في نبرات صوته يعليان مقام الأبوة، هنا أدرك الأب أنه خرج عن شعوره، تسمر في مكانه، انتابته لحظة شفقة عندما شعر بأنه تجاوز حدود التأديب، انسحب والفؤاد بين ضلوعه ينزف الحسرة مما جرى.

بدأ «**شكري**» يقبل «**ليلى**» ويهدئ من روعها، وأخذها من يديها إلى الغرفة حتى جلست، واستراحت تمامًا، هدأت بين ذراعي أخيها، وتزامن توقف ضرب الصغيرة مع صوت أذان المغرب، فشعرت الطفلة بالسكينة تقترن بصوت المؤذن، فكانت كلما تسمعه تسري في كيانها أنوار تشعرها بالراحة.

أما الأم قد احتبست دموعها، وتظاهرت بالتماسك مع أن قلبها يتمزق، فرغم ضيق ذات اليد، وقلة المال بسبب الانتقال

من شقة ضيقة إلى شقة جديدة أوسع منذ عامين، كان الأب قد اشتراها بالآجل، وبقسط كبير يلتهم أكثر من ثلثي الدخل، وكان على الأسرة أن تعيش بالثلث الباقي لمدة ثلاثة أعوام أخرى متتالية؛ لسداد باقي الثمن؛ ولذا كانت تضحي بالكثير من الاحتياجات من أجل الوفاء بالدين، نزلت على الفور من الشقة دون أن تتفوه بكلمة واحدة، وبعد فترة عادت الأم تحمل عروستين في يدها، إحداها لـ«**منى**» والأخرى لـ«**ريهام**» حتى تقضي على هذا الاشتباك بين بناتها إلى الأبد، فقد تيقنت أنه لا ضير من التخلي عن بعض الضروريات؛ من أجل ترضية الأطفال، فهم لا يدركون لب المشكلة، وبعدها بفترة اشترت لعبة جديدة لكل بنت، وأحضرت لـ«**ليلى**» عربة صغيرة أحبتها، وكانت دائمًا ما تضعها بجوار عروستها القديمة.

تذكرت «**ليلى**» معاناتها مع الأيام، فقد أصبحت فتاة يافعة منذ أن دخلت الصف الأول الإعدادي، وحملت مبكرًا معالم المرأة، وجمال الأنثى التي تهزم فحولة الذكر، فحبست في فوران جسدها بالانوثة، وحرمت من أن تعيش طفولتها، ومع الوقت أصبحت تجيد لفت الانتباه، وربما ورثت الدلال عن أمها التي كانت تجيد هذا الفن في التعامل مع أبيها، فكانت في الرشاقة كالفراشة التي تتحرك كالنسيم في الصباح بين الزهور؛ لتنثر العبق فوق أغصان الربيع، وفي المساء تجذبها شدة الضوء فتحوم حول الوهج تتحدى الاحتراق.

مازالت «**ليلى**» بعد اجتياز الثانوية، وحتى الآن، وهي على أعتاب التخرج من كلية الحقوق تذكر تفاصيل الماضي، وما زالت تتمسك بعروستها كأنها جزءٌ من روحها، لم تكن المشكلة لدى «ليلى» هي تلك اللعبة، بل كانت القضية هي تحول دفة الحنان من أمها إلى شقيقتيها، كانت تكبر وينتابها الشعور بالحرمان العاطفي، وربما كان تشبثها بالعروسة هو تمسك بهذا

الحنان الذي حُرمت منه.

أزمة «**ليلى**» الحالية نشأة منذ بواكير الطفولة؛ فكانت ترى أن وصول العروسة ليد أختيها قد يسلب منها حنان الأم، وفي غفلة من الأبوين تنامى ذلك الشعور لديها، وكلما مُنحت الصغيرتين لعبة أو قطعة من الحلوى، حتى مداعبة الصغيرتين كل ذلك تشعرها بالتجاهل؛ لذا كانت تصمم علي المقاومة لآخر لحظة لكي تسترد حنان الأبوين بعدما أن تصورت أنها قد فقدته، كانت رغبتها لأحضان الأم الدافئة جامحة، فقد انشغلت عنها الأم سهوًا لتدلل الصغيرتين، تملكها التحدي بالعناد؛ لعلها تلفت الانتباه نحوها، جرّاء فقدان هذا الدفء، وعندما يشتد التجاهل يدفعها الغيظ إلى التظاهر بالثبات، ومن شدة الحزن يضربها وهم الغرور، فتحاول التماسك من الخارج، وهي محطمةٌ من الداخل،كأنها مسلوبة الروح.

كانت هذه المواقف غير المقصودة هي نقطة التحول في حياتها، وأصبح الجوع الداخلي لعاطفة الأمومة يلاحق روحها الظمآنة إلى الري، ومبكرًا عرفت آلام الحرمان، ومع تراكم المواقف توالدت لديها خصلة النفور من النساء، وكان حنان شكري نحوها نقطة الانطلاق التي تجذبها نحو الرجال، وأصبح الرجل لديها محل هذا الأمان المفقود.

كانت تحمل المتناقضات في آن واحد، دائمًا تحرص على التفرد، ولو بالعناد، ولَّد لديها كلام أبيها عن القناعة مواقف عكسية، فتعلقت بحلم الثراء، أما نصائح أمها بضرورة أن تستظل الفتاة برجل ينفق عليها ويرعاها؛ جعلتها تحلم بالاستقلال والاعتماد على الذات.

أصبحت كالمهرة الجامحة، امتزجت في شخصيتها كل الخصال، فهي طيبة جدًا، وشريرة جدًا، هي الصيف والشتاء،

العناد والطاعة، فهي كامرأة في طور النضوج باتت لغزًا محيرًا لكل من يراها، فهي أخطر على نفسها من أي وباء، ترى هل ستعبر الحياة سالمة أم ستغرق في غياهب المتناقضات التي كبلت كل أحلامها بسياج من حرير، وأشواك.

٢- أجنحة الأحلام

يبدو «كمال عمر» ابن قرية «**الدلجمون**» التابعة لمركز «**كفر الزيات**» بمحافظة «**الغربية**»، ذو ملاح شرقية، في وجهه سمرة ممزوجة بالبهاء، يميل إلى الطول، جسده رياضي، يكسو الرضا جبينه، وغالبًا ما تعلو البسمة فوق شفتيه، انتهى من دراسة الحقوق العام الماضي، وكان ترتيبه الأول على الكلية، كان حلمه في الحياة منذ الطفولة أن يصبح وكيلًا للنيابة، ثم قاضيًا؛ حتى يكون لبنة في محراب العدالة وهذا ما دفعه إلي الالتحاق بكلية الحقوق، كان يكره أن يصبح محاميًا؛ ولذا مكث عامًا بعد التخرج بلا عمل في انتظار تعيينه ضمن أوائل الجامعات بالنيابة العامة، وخاصة أنه حصل على درجات مرتفعة في كل الاختبارات، وبقيت نتيجة الاختبار الأخير، والتي تعرف بكشف الهيئة، ويعقبها قرار التعيين مباشرة.

يُعرف عنه قوة الحدس ودقة الملاحظة، فكان الجميع بالقرية يلجأون إليه لفك طلاسم بعض الجرائم، تصرفاته في المجالس العرفية، وطريقة استجوابه للمتخاصمين كانت تنتهي بكشف المستور، ومن ثم إصدار الأحكام العرفية، كأنه خلق ليكون محققًا وقاضيًا، ورغم صغر سنه ذاعت شهرته في البلدان المجاورة كمحكم، فكان يتم استدعاؤه، ولم يذهب إلى مجلس إلَّا وكشف الحقيقة، وتمت على يده المصالحة.

قبل يوم من ظهور نتيجة مسابقة التعيين بالنيابة العامة كان «**كمال عمر**» يجلس أمام منزله الريفي البسيط يسند ظهره على شجرة عتيقة في الفناء الصغير المحاط بسور من الطوب اللبن، أمام بوابة الدار، كان البيت يقع على حافة نهر النيل؛ حيث تعود أن يجلس قرب المساء يراقب النهر القادم من الجنوب يتدفق نحو الشمال، يستمتع بمنظر الماء، تحوم فوقه الطيور؛ لترتشف الماء رشفًا من فرط العطش، كان يعشق أن يرى السماء مطرزة

بالشفق في لحظة الغروب، فما أجملها حين تنبثق منها الخيوط الحمراء فوق صفحة النهر؛ لتتلاقى النسائم العليلة تعانق سطح الماء، فيرتفع الموج ويهبط في حركات متتابعة من فرط القهقهة، وكأنه يغسل الضفتين بماء الحياة.

لم ينس كف أمه وهو يبسط فوق عمره أهازيج الحنان، تذكر لعبته الجميلة البسيطة ذلك الحصان الخشبي الذي صنعه نجار القرية من خشب التوت، عندما كان في سن التاسعة، حينها تم طلاؤه بلون أخضر مزركش برسوم حمراء، ولم تكن القرية تعرف سوى اللونين، كان بعضهم يرى أن اللون الأخضر هو لون النماء، والأحمر هو رمز الشباب والقوة والفحولة؛ ولذا تم طلاء الحصان الخشبي باللونين.

مع رقة المشهد لحظة الغروب، داعب الهواء العليل أحلامه، فغلبته سنة من نعاس، فرأى في غفوته كأنه يركب فوق حصانه الخشبي المزركش باللونين يتنظر دوره في حلبة المنافسة، كان يرى شبابًا يحاربون بسيف خشبي ثعبان «**الكوبرا**» القاتل، وكانت نهاية كل جولة هي موت شابٍّ، قبل مجيء دوره في المبارزة كان منظم المصارعة ينادي على الكثيرين فينزلون حلبة المصارعة، فيخرجون قتلى، سيوفهم مكسورة، كانت المنازلة غير متكافئة، الثعابين مدعومة بجنود على رأسهم خوذات حديدية، وأطواق من زجاج صلب يسمح لهم بالرؤية، ويحمي الوجوه، الجنود خلف الأقنعة مدججون بالأسلحة الإلكترونية مصوبة نحو الشباب الأعزل فتقتل كل من يحاول أن ينتصر على الثعبان، واستمر هؤلاء كذلك يخرجون محملون على الأعناق في صراع نهايته الموت.

وعندما جاء دور «**كمال**» في المنازلة، وجد نفسه يصارع أكبر ثعبان بسيفٍ خشبي، من فوق حصانه الخشبي القديم،

وحين نزل بساحة المعركة، ضحك الجنود عليه، فكيف لهذا الواهم أن ينتصر على ثعبان «الكوبرا» بعدة واهية، توقع الجميع سقوط الفتى صريعًا كغيره، بيد أن «**كمال عمر**» أبلى بلاء حسنًا، وأرهق الثعبان وبث الرعب في نفوس الجميع، وكاد أن يهشم رأس الثعبان، فجأة استيقظ من النوم، فلم يكتمل الحلم المزعج، وذلك عندما وجد يد أمه تهزه برفق، تمسح رأسه الساخنة، فوجد يدها من غزارة عرقه مبللةً كأنها غمست بنهر، فعرف أنها شعرت بما يكابده من صراع أثناء ذلك الكابوس المرعب وهو نائم يسند ظهره فوق ساق الشجرة بالفناء الصغير.

استيقظ يلقي رأسه فوق صدرها، يتلمس الأمان، فهدأت روحه المضطربة، أمسكت بيده،وأخذته نحو الداخل؛ ليتناول طعام العشاء مع والده. أكل بسرعة، وبعدها دخل غرفته، تحرك ليدلف إلى سريره، لعله يستكمل الحلم ويعرف نتائج تلك المبارزة، تبسم من سذاجة الفكرة، فالأحلام ليست كالمسلسلات يمكن استكمالها تباعًا حلقة تلو أخرى. نام ليلته نومًا عميقًا لم ينم مثله من قبل دون أن يرى شيئًا، نهض مبكرًا كالعادة. أخذ حمامًا باردًا، وتريق ببضع لقيمات، ثم خرج مسرعًا ليلحق بالقطار إلى طنطا؛ ليستطلع نتيجة المسابقة.

ركب القطار، وشاهد الحقول وهي تتحرك عكس الاتجاه، كان يرى ما يقطعه القطار من مسافات بأم عينه، هكذا يتفلت العمر من المرء كما يتفلت الماضي من الحاضر، وكان يقول لنفسه:

- الحد الفاصل بين الأمس والغد مجرد غفوة كتلك التي غفوتها بالأمس تحت الشجرة، ما أحلى الأيام المنصرمة، عندما تمر تطوي جزءًا من حياة الإنسان لا يتبقى منها إلا الذكريات.

أسند رأسه بجوار شباك القطار، أغمض عينه عله يستشرف جزءًا من مستقبله في غفوة جديدة.

كانت صور المطحونين من الفلاحين تثير حسرات في قلبه عليهم، وعلى نفسه التي تحيا في عالم الشقاء معهم، هؤلاء ينحتون الأيام،وجُلُّ آمالهم كسرة خبز، بيد أن فيلق من المَيْسُورين يخطفون اللقيمات منهم، ومع ذلك أيدي الفقراء لا تكف عن العمل، ويعودون إلى منازلهم راضين، فمنذ المساء المنصرم ينتظرون من الصبح الجديد أن يأتي بكسرة خبز أخرى، تفر دمعة من عينه مخاطبًا نفسه:

- من أجلكم أنتم أيها المقهورون، أحلم بأن أرتدي ثوب العدالة لعلي أرفع الظلم عنكم متي وجدته.

يغلب النُعاس الفتي دون موعد، فلم يتعود أن يذوق للنوم طعمًا مع شمس الصباح، كأن روحه من بهجة الصبح، تولد مع نور الشمس في كل فجر جديد، فيسمع نداء أمه قادمًا من الأيام البعيدة، وهي تهدهده وتلقمه الموز، فعندما كان على أبواب العاشرة من عمره، اشتهى الموز أشد ما يكون الاشتهاء، لم يكن بالبيت جنيهٌ واحدٌ، نهضت الأم وذهبت من فورها إلى السوق لتبيع دجاجة، وتشتري **بثمنها «الموز»** وعادت به للصغير، وما إن أكل الموزتين ويد أمه تمسح برأسه، حتى ارتسمت البسمة تغمر وجه أبيه فرحًا بتلبية رغبات ولده، ومنذ هذا الوقت مازال الصبي يشعر بالشبع من قبل أن يكمل الموزة الثانية، كانت عيونِ الأم تلقمه الحنان، وتغطي الصبي برموشها؛ فشب سالمًا معافًا في عقله وبدنه، وقلبه عامرٌ بالدفء، تمر تلك الواقعة بين الفينة والأخرى عبر خاطره نائمًا أو مستيقظًا، كأنها العطاء المنهمر الذي يمده بالقوة، فيقهر التحدي ولو كان مكسورًا.

مع وصول القطار إلى محطة طنطا يهبط من القطار تزفه

الذكريات كأنه في حفل عرس جديد، وصل إلى مبنى النيابة العامة، دخل مرفوع القامة، تفحص الأسماء، فلم يجد اسمه، دقق في أسماء أقرانه فوجد الناجحين أشخاصًا يعرفهم بأسمائهم، وظلوا يرسبون أعوامًا وتقديراتهم، ودرجاتهم ضعيفة؛ كانوا يتبادولون التهاني أمامه، تبسم ساخرًا، وقهر حزنه بمرارة الرضا الزائف، وبلع حسرته بين أحشائه، فتساقطت الدموع المحبوسة بين روحه، ولم يذق مرارة تلك الدموع أحد سواه، وكأن الدهر قد خلع من فوق جسده حلة الربيع الأخضر، ليلبسه حلة الخريف، فشعر بأنه يمشي عاريا، تتساقط ثيابه؛ لأن الأجساد في هذا الزمن لا يسترها سوى المال، والنفوذ.

استدار للخلف بشموخ الواثق المقهور من الدنيا، فظن بعض الناجحون من حوله أنه من المقبولين، عاد لمنزله جلس على دكة خشبية في وسط الدار يده على خده، ظل يحبس دموعه في جوفه، حتى عاد أبوه في المساء يحمل فأسه بيده اليسرى يلقي بها جانبًا، وأجرته بيده اليمني يقذف بها لزوجته، فعلم من وجومهما الخبر، فبتسم وذهب يقبل رأس ولده:

-**الأب** : لا تحزن ياولدي.

-**كمال** : كنت أود أن أغرس في العدالة زرعًا يستظل به القاصي والداني.

- **الأب** : عندما تأتي شمس العدالة سوف نزرع الأيام البيضاء نورًا غمر كل البشر.

تبسم «**كمال**»، وقبل يد أبيه، وانحنى يقبل قدم أمه، فغلبتهم الدموع تلعن الظلم، فغسلت الدموع بعض أوجاعهم، وصرخوا في الأيام يتوسلون للفجر أن يشرق.

٣- الحادثة

نسج القدر خيوط الأمل وهو يلملم الجراح؛ كي تُبعث في الروح أنفاس الحياة من جديد. أما «**ليلى**» فمازالت تتحرك مع الجمال، وتخطو فوق أهرام من القلوب، كانت كالمهرة الجامحة تأبى أن يطأ ظهرها إلا فارس من زمن معبق بالسحر، تمشي بدلال فتغوص بسنابك سحرها على مشاعر تنزف آلامًا من فرط الهوى، فتتساقط أرواح العشاق بين الأطلال، كالفراشات جريحة مكلومة، ولم تكن الفتاة تقصد أن تدمي الهائمين بها، بيد أن رمشها كالسهم، مافتئ ينطلق حتى يغرس في القلوب غرسًا، فكثيرًا ما كان يؤلمها أن ترى العيون تذرف أنهارًا من الحسرة والسهاد، ولم يكن بمقدورها أن ترحم هؤلاء الحيارى المرابطين على أعتاب قلبها البكر الذي طالما قدسه الناسكون في محراب الحب.

مرت السنوات عامًا تلو الآخر، وجاء موعد إعلان نتيجة ليسانس الحقوق، كانت «**ليلى**» تعيش حالة ترقب وقلق، الامتحانات كانت صعبة ومعقدة، وشبح الرسوب يطاردها، فهي تخاف من لوم الأسرة وكيد اللائمين، وأيضًا تتعجل التخرج، ويتملكها طموح العمل في مهنة المحاماة بشكل أقوى من معارضة الأسرة؛ التي ترى أن المرأة لا تصلح لهذه المهنة الشاقة، كانت تقف على حافة الصراع الملتهب مع الجميع، وعادة يشتعل وطيس المعركة كلما ذكرت اسم هذه المهنة.

تتداخل الأفكار وتحتشد في ذهنها دون توقف، وعقلها يكاد ينفجر، وأعصابها تتأرجح بين التوتر والأماني، قطعت المسافة من منزلها بشارع «**ربيع الجيزي**»، سيرًا على الأقدام إلى «**جامعة القاهرة**» بلا تعب، فهذه المسافة تربو على ثلاثة كيلومترات، ربما حدة الترقب لم تجعلها تشعر بالإجهاد، دخلت من بوابة الجامعة كأنها محمولة فوق بساط الريح، تعطر برقتها الهواء

أينما حلت، وصلت قرب لوحة الإعلانات منهكة تدفع الزفير دفعًا، وتحتسي الشهيق حسوًا من شدة الاندفاع، فجأة شعرت بكف رقيقة ربَّتت كتفيها من الخلف، توقفت كي تستطلع صاحبة هذه اليد؟ ولكنها تسمرت في مكانها، لم تستدر للخلف خوفًا من خبر قد يكون غير سار، فإذا بصوت «**رجاء**» ابنة خالتها يحمل إليها رسالة مداعبة.

تلتفت «**ليلى**» نحوها بعيون كلها عتاب، فتضحك «رجاء» بثقة شديدة وتأخذها بين ذراعيها يتحركان بصعوبة من شدة الزحام؛ لعبور بعض الخطوات إلي الأمام، لقراءة النتيجة المعلنة في كشوف فوق لوحة الإعلانات، فلم يكن وقتها يوجد مواقع إلكترونية تعلن بها نتائج الامتحانات بالجامعات كما الحال الآن.

«**رجاء**» كانت متفوقة، أما «**ليلى**» فتنجح وتعبر السنوات الدراسية بالرأفة، يتحركان سويًا حتى وصلا إلى كشف النتيجة، «**ليلى**» تتفحص الكشوف حتى تجد اسمها، فجأة تقفز في الهواء كما تقفز عروس البحر فوق الماء فيتساقط أريج السعادة على المكان، صرختها المفعمة بالفرح زلزلت قلوب الشابات، فنثرت الحنان والرقة علي سماء الجامعة، وهتفت:

- **ليلى**: أخيرًا نجحت، وحصلت على تقدير مقبول.
- **رجاء**: وأنا نجحت، اسمي هنا جيد جدًا.
- **ليلى**: كالعادة، ألف مبروك يا حبيبتي.
- **رجاء**: لعلي أحصل على فرصة عمل بهذا التقدير المرتفع.
- **ليلى**: دعكِ من التفكير في القادم، فاليوم للفرح فقط.

كان الشعور بالنشوة لدى «**ليلى**» طاغيًا، لم يكن يشغلها سوى النجاح، ولو بأي تقدير، تستجمع قوتها وتشق الصفوف؛ لتغادر الزحام نحو المستقبل، باتت تقف على أعتاب الحياة، أخذت شهيقًا عميقًا حتى امتلأ صدرها بالهواء، كأنها تستعد لحلبة صراع جديد مع العائلة التي ترفض عملها في مجال المحاماة.

وفي هذا اليوم ورغم أن «**ليلى**» كانت ترتدي زيًّا بسيطًا، إلا أنها استطاعت أن تكون مثيرة وجذابة، فهي بالجامعة أشبه بالوردة التي تجذب الفراش حول عطرها، كانت أيقونة ذهبية، ومتحررة في علاقتها بالشباب، لكن في حدود تحفظها من الزلل.

وكعادتها لم تكن تهاب مصادقة الشباب،والجلوس مع الرجال على المقاهي، ملابسها على الرغم من ذوقها الرفيع تقترب في الشكل من أزياء الرجال، غالبًا ما كانت ترتدي البنطلون الجينز وبلوزة أقرب إلى قمصان الشباب، كان جسدها مرسومًا بأصابع فنان، شعرها الأحمر الممزوج بالسواد الخفيف يتدلى على كتفيها كأنه تاج الحسن، بشرتها ما بين البياض والحمرة، عيناها ذواتا اللون العسلي امتلأت بكل طلاسم السحر، فاشرأبت إليها الأعناق لعلها تستقي من شذى أنوثتها بعضًا من قطرات النعيم.

كانت الفتاة تعشق جمال نفسها، فتقضي معظم الوقت في وضع المساحيق، والكريمات لترطيب بشرتها الناعمة فتزداد لمعانًا، وتمشط شعرها، فيغوص المشط بين الشعر فيكاد أن يغزله خيوطًا من الحرير اللامع، لقد هتف الجماد من فرط حسنها، وزاد من هذا الحسن أنها تعتني بأدق التفاصيل، فيخيل للناظر نحوها أن حاجبيها مرصوصان، كأن كل حاجب نسخة من قوس قزح، كانت تتعمد أن تبرز صدرها إلى الأمام، فأصبح هذا الصدر يهز الرغبات في الرجال هزًا، فتصرخ الذكور كأنها ذئاب تعوي من فرط اللهفة، دائمًا تبدو كأنها أميرة توضئت بنور الشمس، وتعطرت بعبق الربيع، هذا السحر أكسبها نضارة الفجر الجديد، لم تعتمد الفتاة في مظهرها على جمالها الفطري فقط، فالذكاء لديها كان في القدرة على إبراز مواطن هذا الجمال.

شعورها بأنها مرغوبة، ومحل صراع بين الشباب بالجامعة يمنحها لذة تجعلها تحلق فوق عنان السماء، تعودت منذ صغرها

أن تلفت الانتباه بالبكاء أو الصراخ أو مخالفة تقاليد الأسرة، وها هي في ريعان شبابها؛ تعلمت أن تلفت الانتباه إليها بكل ما تملكه من مقومات الأنوثة، كان ثراؤها بالمحاسن يضعها في مرمى الغيرة، والحسد من كل أقرانها من الفتيات، وخاصة أن العشاق يتهافتون نحوها، فيتساقطون كأوراق الخريف قبل أن تفتح قلبها لأحد، أو كما تتساقط ذكور النحل وهي تحاول أن تظفر بملكة النحل في جوف السماء أثناء الزفاف، كانت لا تبالي بالشهداء والغرقى في بحار حبها، متعتها كانت في لفت الانتباه، والتأثير، فتغزو الآخر دون رحمة ولا هوادة، وهذا هو السبب في أن تقديرها العلمي كان متواضعًا؛ لأن تصارع القلوب حولها كان معركتها الحقيقية التي تحقق لها الارتياح.

على النقيض من «**رجاء**» صديقتها، وابنة خالتها، تلك الفتاة الساكنة من الخارج تشتعل بالغيرة من الداخل، كانت قصيرة، وممتلئة بعض الشيئ، ناعمة في مظهرها، حادة في أعماقها، طُمست ملامح الجمال فيها بإغلال الفقر، لا تهتم إلا بالمذاكرة؛ لعلها تفر بالتفوق من الفاقة كفرار الإنسان من الطاعون، لم تكن قادرة على شراء الكتب، واللبس، وكانت دائمًا تأخذ لبس ليلى القديم؛ لذا أصبح التفوق في التعليم هو طريقها نحو الخلاص من عالم الحرمان، لكن هذا الخلاص بعيد المنال، وخاصة أن البطالة ضربت أحلام الشباب في مقتل، كانت «**رجاء**» تعاني من الكبت، والضيق، واليأس، فقد حصلت على تقدير جيد جدًا، ولن يكون لها مكان في الجامعة؛ لأن وظيفة معيد بالجامعة ربما كانت محجوزة لأبناء بعض الأساتذة، والعمل بالنيابة العامة محرمٌ على أبناء الفقراء، كانت تعلم أنها لن تجد عملًا بعد التخرج بسهولة، المتاح أمامها أن تعمل محاميةٍ تحت التدريب، وتقريبًا بلا أجر؛ أو سكرتيرة تستقبل غزلًا قبيحًا من رب عمل يعاني من المراهقة المتأخرة، أو مندوبة مبيعات متجولة تهيم في الشوارع؛ لتسوق ولاعات السجائر المستوردة من

الصين، أو أمواس الحلاقة الهندية، هذا المصير المحتوم جعلها لا تشعر بلذة التفوق، كانت دائمًا تخفي غيرتها من «**ليلى**»، فرغم عدم تفوقها تحصد إعجاب الشباب، وتعيش حياتها بحرية كاملة، كانت تقارن نفسها بها، ولا تجرؤ على مناقشة أبيها، أو تعصي لأمها أمرًا، لكن «**ليلى**» المتمردة تعودت على فك كل القيود.

علاقة متناقضة جمعت بين الفتاتين، أخطر ما فيها ما تكنه «**رجاء**» من حقد مكتوم، وغيرة مشتعلة، ورغم ذلك تظهر لها كل الود، الغريب أن «**ليلى**» لم تلحظ ذلك أبدًا، وكانت تتلقى منها السهام مغلفة بالقبلات.

بعد معرفة النتيجة، ما كادت عدة ثوان تمر حتى تجمع عشرات الشباب حول «**ليلى**»، يباركون نجاحها، حتى «**سامي السلاموني**» ابن رجل السياسة والأعمال كان في طلائع المهنئين. تلقت «**ليلى**» التهاني من أعداد غفيرة، في الوقت ذاته لم تسمع «رجاء» كلمة مبروك من أحد، فالبرغم من أنها الحاصلة على أعلى تقدير تراكمي بالكلية، والأولى على الدفعة لا تجد من يهنئها.

ارتفعت وتيرة الغيظ في نفس «**رجاء**»، كانت ترى أنها صاحبة الحق في كل هذه التهاني وهذا الإعجاب، فكما كانت تدرك أنه لا مجال لها في العمل في الجامعة، أيضًا تدرك أن أحدًا لن يهنئها إلا القليل، شعورها بالمرارة جعلها تنفصل عن الواقع وتلعن قواعد النفاق، وتيقنت أنه لا يوجد سبيل للخلاص من هذا الإجحاف، وحدها من يتجرع مرارة الصبر رشفة تلو رشفة، لم تكن «**ليلى**» تدرك أو تشعر بما يدور بخلد صديقتها الوحيدة، فكل ما يبدو منها لا يدل على هذا الحنق المستتر.

تنسحب «**ليلى**» من بين جموع الطلاب المحتفين بها وتمشي خلفها «**رجاء**»،وكأنها وصيفة لملكة متوجة على عرش القلوب، «**ليلى**» تتكلم عن أحلام المستقبل والعمل الحر في المحاماة، وتبالغ

في طرح أمانيها، و «**رجاء**» لا تكاد تسمع أي صوت فما زالت تحترق من الداخل، لقد بذلت كل ما في وسعها ولم تنل من كلمات التقدير مثلما حصلت «**ليلى**» التي توجت بكل الإعجاب، رغم تقديرها المتواضع.

احتفالاً بالنجاح ووداعًا للجامعة، قررت «**ليلى**» و «**رجاء**» أن يعودا إلى الجيزة سيرًا على الأقدام، وفي رحلة العودة كانت «**ليلى**» تتلقى كلمات الإطراء والغزل والإعجاب، تارة تقف سيارة يعرض صاحبها خدمة التوصيل المجاني، وتارة أخرى يصرخ سائق ميكروباص بكلمات الغزل الغليظ.

تحول الشارع كله إلى ثورة تهتف بسحر «**ليلى**»، وهي تزداد نشوة بهذا الإعجاب، ولكن هيهات أن يطفئ هذا الإعجاب الزاخر هذا الجوع العاطفي الذي يطغى على كيانها، فهي تريد أن تحصد كل كميات الإطراء والثناء لسد الجوع الداخلي لديها، هي سعيدة بكل ذلك، ولا تدرك سببًا لسعادتها، ولكنها على أية حال سعيدة.

فجأة تأتي سيارة يقودها ذلك الشاب الرزين «**ناجي**» تقع عينه على «**ليلى**» التي تسبق «**رجاء**» بعدة خطوات لتحثها على سرعة الخطى، يشعر «**ناجي**» بذوبان ذاته في هذه الفتاة، كانت قضاءً لايمكن الفرار منه، تبعثرت مشاعره كمن سقط من الفضاء لا يجد قرارًا يقف فوقه، شعر بأن السيارة لا تحمله كأنها تهوي به نحو المجهول، فقد نفسه، كأن شرارة لحظة وحدة غرست في أعماقه أوجاع الدهر كله، لم يستطع أن يمتلك زمام عقله، فقد السيطرة على عجلة القيادة، فانحرف بها ليصدم «**رجاء**»، فتقع على الأرض بالتزامن مع صراخ «**ليلى**» وتجمَّع المارة لإنقاذها، مع كيل السباب لـ«**ناجي**» الذي لا يرد، أو حتى يتفوه بكلمة، سوى أن ينظر إلى «**ليلى**» وهي تصب جام غضبها عليه، كان مرتبكًا مستسلمًا، وربما غائبًا عن الوعي.

٤- القيد

كان «ناجي» ذا ملامح شرقية، يميل إلي الطول، بشرته خمرية، وعيونه لامعة واسعة، أما شعره فكان شديد السواد مجعدًا، علي هيئة دوائر صغيرة، أنفه دقيق، وشفتاه غلظتان، وصوته رقيق مُميز، كان رومانسيًا حالمًا بالحب.

في لحظة فارقة وعلى غرة، طوقت الفتاة رقبته بسياج من ذهب، إلا أن آلام الأسر بين ضفاف العيون الناعسة عادة ما تحجب صورة الدنيا عن العاشق، عندئذ تفتك الرموش بالفؤاد كما يفتك الزمن بأعمار البشر، قيود العشق لا فرق فيها بين قيد من معدن نفيس أو آخر من معدن رخيص، بيد أن القيد في هذه المرة لم يكن القيد حول المعصم؛ بل نُسج حول القلب فحُبست دقاته حبسًا، وفقد صاحبه لذة التحرر؛ ليسقط في لذة العبودية الأبدية التي يساق نحوها البشر كأنهم سكارى، حتى أن جلهم من آثار خمرة الحبيب يرون أن القمر يتجلى في وضح النهار، أو أن الشمس تشرق بجوف الليل ضاربين بالحقائق الواضحة عرض الحائط.

عقب الحادثة تم تحرير محضر بالواقعة، ونقلت «**رجاء**» مع الساعة الواحدة ظهرًا إلى مستشفى «**أم المصرين**» بشارع «**صلاح سالم**» بمحافظة الجيزة، وزُفّ المجني عليه بالهوى إلى قسم العمرانية، فجلس يتمدد داخل غرفة الحجز فوق الآهات، تقهره سخرية المساجين، ويضربه الذهول كأن على رأسه الطير، لم يكن يتصور يومًا أن يتعرض لمثل هذا الموقف. أطاح السهد بصفاء ذهنه، ومع هذا ما زالت عيونه شاردة، تبحث عن صورة «**ليلى**» الخلابة بين أطلال الخيال، نظراتها كالسهم الذي لايخطئ فريسته، جذبته، فأصبح أسيرًا، هزمته فأصبح كسيرًا، يشعل التمني سريرته، وعندما أراد أن تكون له وحده، لم يعد شيء آخر يسيطر على باله سواها.

جمال «**ليلى**» ورغبته فيها حرك ذكرياته القديمة، فهو يريدها لنفسه، تعلق بها من أول نظرة؛ كما يتعلق الغريق بالحياة، تذكر طفولته البعيدة عندما تعلق قلبه بلعبة القطار في يد جاره الصغير، بدأ شريط الذكريات يمر أمام عينه، ودون أن يدري تذكر صديق الطفولة «**باسم**» ابن جارتهم الثرية «**جلفدان**» هانم، بشارع «**الشيخ يوسف الدجوي**» الذي يقطن بالبيت العتيق، ويتكون «**البيت العتيق**» من دور واحد يحده سور نصفه من بناء إسمنتي، والنصف العلوي من إطار حديدي متناسق على شكل أعمدة تزينها زهرة «**اللوتس**»، ومدهونة باللون الأسود، وبما تسمح بظهور عدد من أشجار الفواكه في حديقة المنزل. وعلى الشرفة بالغرفة الأرضية يظهر «**باسم**» وهو يلعب بقطار صغير، و «**ناجي**» يقف قرب المساء كل يوم يراقب دوران القطار الدائري بشغف، وظل هكذا لمدة أسبوع كامل، ويتمنى أن يمتلكه، وقتها كان هذا القطار من وسائل الرفاهية بعيدة المنال، ومع حلول الظلام يعود إلى شقته،ويجلس صامتًا دون أن يتفوه بكلمة.

كان «**ناجي**» وقتها في الصف الأول الابتدائي، ويقطن في نفس الشارع بشقة ٩ بالدور الأخير في المنزل القديم، بيد أن امتلاك قطار مثل هذا القطار الجميل هو كل ما يشغله، خرجت أمه «**شكرية**» من الداخل،ووضعت له الطعام، لم يلتفت إليها، ظنته في باديء الأمر حزين على فراق أبيه الذي فارق الحياة منذ شهرين، احتضنته وقبلته وسألته عن سبب صمته، أخبرها أنه يريد قطارًا مثل قطار «**باسم**» جارهم، وفي اليوم التالي سألت الأم عن سعر القطار في محل الألعاب الذي يقع ناصية الشارع، ففزعت من ثمنه، كانت الأم «**شكرية**» طيبة القلب، ورقيقة، وحاسمة، حاولت أن تثنيه عن ذلك بإغرائه بلعب أرخص دون جدوى، وعندما يئست أخبرته أن معاش والده ٥٠ جنيهًا فقط، وأن ثمن القطار ٢٥ جنيهًا!،والمعاش يكفي بالكاد إيجار الشقة والكهرباء ولا طاقة

لها بشراء مثل هذا القطار، كما أخبرته أن إرث أبيه في أرض جده بالصعيد في حوزة عمه، ورفض في السابق رفع يده عنه، عندما قرر الأب بيعها لشراء قطعة أرض بالمنيل ليبني عليها عمارة، وهو ما أغضبه، وتسبب في رفع ضغطه، حتي سقط ميتًا مفارقًا الحياة.

شعر «**ناجي**» وقتها بالحسرة التي لا يتذوقها أو يشعر بها سوى من تذوق بروحه مرارة اليتم، ولكنه قرر عدم التنازل عن حلمه في امتلاك هذا القطار، في صباح اليوم التالي قصد منزل صديقه الثري، تسلق السور، ودخل بيت «**باسم**» حتى وصل إلى الشرفة عاقدًا العزم على سرقته، ومد يده نحو القطار كي يأخذه، فجأة وجد يده قد تراجعت عندما تذكر كلمات أمه، تدوي في أذنه وهو يحاورها:

- **صوت الأم**: من يسرق يدخل النار.
- **ناجي**: أنا لا أريد أن أدخل النار يا أمي، آلام الحرق لا تطاق.
- **صوت الأم**: إذًا، لا تسرق أبدًا ياولدي.
- **ناجي**: أعاهدك على ذلك يا أمي.

ذكرى هذا الحوار قفزت فجأة إلى ذهنه؛ لذا انتابه خوف ورهبة، وبدأ يتراجع إلى الخلف حتى خرج من البيت، دون أن يأخذه رغم رغبته الجامحة في امتلاكه، ومرت الأيام حتى انتهى العام الدراسي، كانت أمه تلاحظ شحوبًا أسفل عينيه واصفرارًا في وجهه دون أن تعرف السبب، ولكنها فوجئت به يخرج من حقيبته ١٥ جنيهًا ويناولها لأمه التي ارتعدت في بداية الأمر، ظنت أنه سرقها، ولكنه أخبرها أنه كان يدخر مصروفه ويقوم ببيع الوجبة المدرسية التي كان يتسلمها حتى ادَّخر هذا المبلغ، هنا أدركت سبب شحوبه ونحافته، ضمته إلى صدرها وغمرته بحنان ممزوج بالبكاء، ومن فورها أخذته إلى أحد محلات اللعب، واشترت له القطار بعد أن أتمت المبلغ إلى ٢٥ جنيهًا.

الفترة التي مرت كي يدخر «**ناجي**» هذا المبلغ جعلته يشعر بمرارة الحرمان والفقر،وكونت لديه شرخًا كبيرًا، فهو لا يكاد يرى قلمًا جميلًا مع صديقه إلا وتمنى الحصول عليه، فكان يدخر ليشتري مثله، عقيدة الحرام والحلال تعمقت بداخله، كما يتعمق النور في شروق الصباح، هذا بفضل ما غرسته الأم في وجدان ولدها، كان الجانب الإيجابي في شخصية «**ناجي**» ينمو كما ينمو الأمل في عبق الرجاء، حتى أصبح ذا عزيمة كالصلب لا تلين، كانت طريقته للحصول على ما يريد منذ الطفولة هي الادخار من المصروف الضئيل، وهذا التقتير على الذات وإن جعله يكابد الحرمان، إلا أنه جعله كسيقان الجبال الشامخة. ومع ذلك تولدت في كيانه عقدة الرغبة في التملك، حتى يشبع ما حرم منه.

وبمرور الأيام نضج، وكبر، كان يعمل ويدرس في ذات الوقت، وبعد أن تخرج من كلية التجارة، قرر إقامة مشروع صغير، كان معه رأس مال ضئيل، ادَّخره من عمله في أثناء فترة الدراسة، وبروح المغامر الحالم؛ قرر خوض تجربة العمل الحر، واستأجر محلًا ليمارس نشاط التجارة، كان حلمه في الثراء يحفزه إلى الذوبان في العمل، وكلما زاد هطول العرق ازداد المال، إلى أن تمكن من شراء معرض كبير ليستخدمه في بيع الأجهزة المنزلية، ونظرًا لقلة السيولة النقدية بيده، أكمل تجهيزات المعرض بقرض بنكي.

يوم الحادث كان على موعد مع «**عبود بيه**» صاحب كبرى «**شركات الأنوار**» لصناعة الأجهزة الإلكترونية؛ للحصول على توكيل من الشركة بدون أي ضمانات مالية، «**عبود بيه**» كان متعاطفًا معه نظرًا لما عرفه عنه من جدية ومثابرة، في ذات الوقت كان قد ملَّ من وكيل الشركة «**فريد الضبع**» الذي كان لا يلتزم بأسعار بيع البضاعة المحددة سلفًا من قبل المصنع، علاوة على المماطلة في سداد قيمة البضاعة، وافق أخيرًا على منح هذه

الفرصة لـ«**ناجي**» بعد عامين من الملاحقة، كان صبر «**ناجي**» في اقتناء القطار في مرحلة الطفولة قد استغرق ٦ أشهر، ولم يكن يشعر بالملل من طول الصبر، وعندما كبر صبر عامين حتى أقنع «**عبود بيه**» بذلك.

كان «**ناجي**» على وشك اقتناص تلك الفرصة الذهبية بعد ساعات، ولكن ظهور «**ليلى**» أمامه فجأة، واختلال عجلة القيادة في يده أودت به إلى الحجز، وضاع الموعد المرتقب الذي طال انتظاره، كأن سحر الفتاة أصابه في مقتل، فضاع الموعد، وخاصة أن «**عبود بيه**» ربما قد وافق على مضض، وسوف يعتبر عدم حضوره في الميعاد المحدد، دليلًا على الاستهتار وعدم الجدية، ولن يقابله مرة أخرى، فهو حاسم في القبول أو الرفض.

ينهض «**ناجي**» من فوق «**البرش**» بالحجز وهو في حالة يرثى لها، ضاعت فرصة لن تتكرر، وخاصة أنه كان يعول على أن تكون أرباح نصف العام الأول هي قيمة أقساط القرض البنكي الذي أتم به ديكورات المعرض. الغريب أنه نسي كل ذلك، ولم يعد يتذكر سوى وجه «**ليلى**»، وكان التساؤل الذي يلح على خاطره، كم من الوقت سوف يصبر ليمتلك قلبها ؟ وهل سيُوفق في ذلك؟ وخاصة أن القلوب الثمينة لاتباع ولا تشترى إلا بالمشاعر والإحاسيس، لم يفق من تلك الهواجس إلا على صوت عسكري الترحيلات ينادي عليه كي يخرج؛ ليقف في طابور العرض على النيابة المسائية.

خرج في طابور يضم أرباب السوابق، حاول العسكري الذي يرافقه وهو يضع الكلبشات في يده؛ أن يلمح له أنه يمكن أن يعفيه من ذلك مقابل أن يدفع مبلغًا ماليًا، كان الجنود من خلال خبرتهم يعلمون نوعية النزلاء داخل الحجز، وكانوا يتسابقون على أن يكون المدانون في قضايا التشاجر أو الحوادث البسيطة من نصيبهم في مهمة نقلهم من القسم إلى النيابة، بل إنهم كانوا

يشترون تلك النوعية من «**البولك أمين**» مقابل ٥ جنيهات، فمن المعلوم أن مثل هؤلاء يعتبرون أن وضع القيد الحديدي في أيديهم عار، ويدفعون بسخاء حتى لا يتم وضع تلك الأساور الحديدية في أيديهم وهم في طريقهم لسرايا النيابة.

الغريب أن «**ناجي**» لم يلق لذلك بالاً، ربما فهم ما يقصده الجندي، أو كان في حالة هيام لا تسمح له بأن يفكر في أي شيء، كانت صورة القطار الذي استطاع شراءه في الطفولة تتداخل مع صورة وجه «**ليلى**» فقد عزم ألا يتركها لغيره، كان صوت القطار الصغير على طريقه الحديدي فوق السجادة داخل منزله، يتداخل مع صوت فرامل السيارة ويمتزج بصراخ الفتاة، في هذه المرة تحول حلمه المادي إلى النساء دون سابق إنذار، ودون أن يدري فتح قلبه المغلق للعشق، فبعد أن بلغ ٣٠ عامًا ولم يشعر بحواء إلا في تلك اللحظة المشؤمة، كأن أبواب الحب لا تُفتح إلا بمزاليج المعاناة، لم يفكر قبل ذلك في امرأة قط، وعلى الرغم من مطاردة «**فواكه**» ابنة خالته الثرية له ليل نهار، ورغم تعلقها به؛ لم يتعلق بفتاة من قبل حتى رأي «**ليلى**»،لم يفق من كل تلك الأفكار المتضاربة إلا وهو في طابور العرض أمام سرايا النيابة العامة.

٥- المساومة

ما زال و«**ناجي**» مرتبكًا من آثار القحط الذي ضرب قلبه، مع أن الفيضان فوق ثغر «**ليلى**»، يمني نفسه ولو برشفة من هذا الثغر، فقد وقع على غرة بين مطرقة القانون، وسندان العشق، هكذا يرى نفسه بعد أن فقد التوازن، حاول أن يعرض التصالح عليها دون جدوى، كانت تقف في سرايا النيابة كشاهدة ومحرضة عليه، «**شكرية**» أم «**ناجي**» من فورها اتصلت بأختها «**تفيدة**» هانم تلك الخالة الثرية وأم «**فواكه**» الهائمة في هوى ولدها تطلب النجدة.

جاءت «**فواكه**» كما البرق ملتعاة على الفتى، ومعها محامي العائلة الشهير «**سمير طايع**» وهو رجل أربعيني متلون، يجيد المراوغة، وملاطفة النساء، إذا كن جميلات، دخل مباشرة على وكيل النيابة كمحامي مرافق لـ«**ناجي**»، بيد أن قلب «**فواكه**» حدثها بأن هناك أمرًا ما، فقد لفت نظرها وجود «**ليلى**»، التي تقف بكبرياء ودلال كأنها تصارع الدنيا بجمالها، يبدو أن قلبها الرقيق قد شعر بحدث جلل يطل برأسه على المشهد الحالي، فالأمر أكبر من مجرد حادثة سير، اشتعلت داخل «**فواكه**» غيرة طاغية فهي لا تمتلك جمالاً مثل جمال هذه الأنثى، فقد ورثت جسم أبيها البدين، مع بعض تقاطيع وجه أمها الجميلة «**تفيدة هانم**»، «**فواكه**» لا تحمل من الفاكهة من حيث الشكل إلا اسمها، باستثناء وجه كلاسيكيٍّ جذاب زُرع على جسم بدين يثير الرثاء، بيد أنَّ طيبة قلبها أحلى منٍ مذاق كل الفواكه، وربما يضفي عليها الثراء لمحة جلال أخرى، ولكن شعورها بالبدانة يؤرقها، فعندما رأت «ليلى» لأول وهلة شعرت بما ينقصها، فجأة قفز إلى ذهنها معايرة الأطفال لها في مرحلة الدراسة الابتدائية بالسمنة، كانت مدرسة الرياضة تناديها دائمًا بالفيل، وسط ضحكات الأطفال، كانت تشعر بآلام رهيبة عندما يضحك

الأطفال عليها، والمعلمة تناديها بهذا اللقب، وأيضًا عندما كبرت وحصلت على ليسانس الآداب قسم علم النفس، كانت تتذكر ضحكات الأطفال، وتتعجب من هذا السلوك المعوج لمدرسة لا تعرف شيئًا عن الفكر التربوي، كانت تكره هذه المدرسة التي جعلتها دون أن تدري تكره سمنتها المفرطة، لم تدر تلك المعلمة حجم ذلك الجرم الذي ارتكبته في حق «**فواكه**»، اليوم فقط عندما رأت «ليلى» ودون سابق إنذار، وجدت نفسها تستدعي أحداث الماضي،وتسمع في أذنها ضحكات السخرية من الأطفال، يبدو أن تناسق جسد «**ليلى**» ذكرها بذلك الخلل الجسدي، فهي ترى كل يوم فتيات في منتهى الرشاقة، ولكن «**ليلى**» من بين هؤلاء هي التي ذكرتها بذلك، هل كانت تقرأ واقع الحال من خلال هواجسها؟ كرهتها منذ الوهلة الأولى، بل نقمت عليها عندما رفضت مبادرة من المحامي بالتصالح ودفع التعويض.

منذ أن دخلت وهي تتبادل معها نظرات تحمل كل معاني الصراع والتصادم، انتابت «**فواكه**» حالة من التوتر والقلق، فبدأت تفرك أصابعها تارة، وتارة أخرى تجد نفسها تقضم أظافرها، كان «رضوان» صديق «**ناجي**» الصدوق يرقب الموقف جيدًا، وقد فهم حقيقة الأمر دون شرح، وبات على يقين من أن «**ناجي**» قد وقع في مصيدة الحب الذي لا يرحم، وخاصة أنه سمع «**ناجي**» يتكلم عنها برقة بالغة، ولا يميل إلى تقبل أي نقد لتعنتها في المصالحة، وتوقع أن الأيام القادمة سوف تشهد صراعًا محمومًا بين «**ناجي**» و«**ليلى**» و«**فواكه**»!، فهو يرى أن «**فواكه**» تمتلك أشياء أسمى من جمال الشكل، كما يرى أن نقاء السريرة، وجمال الروح، يؤهلان «**فواكه**»؛ كي تكون من أفضل النساء من وجهة نظره.

ولذا يشعر «**رضوان**» تجاه فواكه بحب جارف، لأنه من تلك النوعية من الرجال التي تقدس الجوهر، ولكن الفارق المادي

الكبير بينهما، وعلمه بأن قلب «**فواكه**» يخفق بالحب نحو «**ناجي**» صديقه؛ جعله يقاوم تلك المشاعر، ويؤثر صاحبه على نفسه.

كان «**رضوان**» ذا ملامح مصرية خالصة، بشرته بلون قمحي، عيونه شديد السواد، شعره خشن، تفوح منه رائحة النبل، والشهامة، فقد تعلم من والده أستاذ اللغة العربية «**عبد الكريم**» أفندى صفاء الروح، يتذكر دائمًا تلك اللقاءات التي كان يعقدها والده مع بعض الصوفية، كان والده دائمًا ينتقي أصدقاءه طبقًا لنبل أخلاقهم، ورهافة أحاسيسهم، كان «**رضوان**» حين يرى «**فواكه**» يتذكر حدثًا رآه في طفولته.

ذات يوم كان والده كان صائمًا صيام تطوع، وبعد أن شرب طرق الباب صديقه «**أيمن**»، استقبله الأب بترحاب شديد، كان الطعام المعد للإفطار لا يكفي سوى رجل واحد، فما كان منه إلا أن خرج ورحب بالضيف، ثم أحضر الطعام المعد له سلفًا، ووضعه أمام صديقه، وأقسم عليه أن يأكل، وادَّعى أنه قد أكل من قبل.

كان قيام أبيه بإيثار صديقه على نفسه، أعظم ميراث حصده رضوان، فكان عندما يرى «**فواكه**» رغم شغفه بها؛ يمنع نفسه عن التفكير فيها، فهي من حق صديقه، دائمًا يتذكر موقف أبيه مع صديقه، وكان لهذا الموقف أثر كبير في تحديد شخصيته، فحبه لقيمة الصفاء جعلته يقرر الالتحاق بكلية الزراعة؛ ليعيش مع الطبيعة، ويرتمي في أحضانها الخلابة، وعندما أنهى دراسته كان يأمل في الحصول على قطعة أرض في مشروع شباب الخريجين، وتقدم بطلب، ومر عام تلو الآخر، وأدرك أن الأراضي المخصصة للخريجين قد وزعت على بعض أصحاب النفوذ، وحتى يخرج من دائرة البطالة افتتح مشروعًا صغيرًا عبارة عن محل لبيع الزهور على ناصية شارع «**ناصر الثورة**» من

جهة شارع «فيصل» الرئيسي، ونجح في هذا النشاط، حيث يمتلك روحًا صافية تتناسب مع طبيعة الورد.

حاول «**رضوان**» من جديد أن يتفاوض مع «**ليلى**» لكي يتم التصالح، دون جدوى،أنها مصممة على القصاص، وترى أن «**ناجي**» ذاك الشاب الذي ذُبح برمشها دون أن تدري، ما هو إلا شابٌّ مستهترٌ، كاد أن يزهق روح صديقتها، وكاد أن يدهسها هى للأخري.

الحادث يمثل شبحًا مزعجًا لها، كان من الممكن أن يحولها إلى قعيدة،فأعز ما تمتلك «**ليلى**» هو قوامها المشوق، وخصرها الملفوف، ووجهها الملائكي، وهذا هو سبب إصرارها على الانتقام، كان من الممكن أن يبدد هذا الطائش حلمها في الثراء، وأملها في النجاح والعمل، ومن هنا كان سبب تشددها.

أدرك «**رضوان**» هذا المعنى وعندما خرج «**ناجي**» من غرفة وكيل النيابة؛ هرول إليه وعلم منه أنه خرج بكفالة، وتسلل المحامي «**سمير طايع**» نحو «**ليلى**» محاولاً من جديد التصالح،ولكنها رفضت فما كان منه سوى الاستهزاء بموقفها متوعدًا إياها بالانتصار لموكله رغمًا عنها،هذا التحدي قد أثلج صدر «**فواكه**» وزاد من حنق «**ليلى**» وتصلبها.

٦- رنين الذهب

أدرك «**سمير طايع**» المحامي أنه لا مجال لإنقاذ «**ناجي**» سوى مساومة والد «**رجاء**» بالمال، إنه لا يفعل ذلك من أجل «**ناجي**» بل لأنه محامي خالته الثرية «**تفيدة هانم**»، اجتهد في جمع معلومات عن أسرة «**رجاء**»، فقبل أن تخرج من المستشفى بيوم واحد وتفك الحبس بعد أن كسر ذراعها؛ كان ملف والدها «**جاد**» أمامه.

كان «**جاد**» أفندي موظفٌ مجتهدٌ في هيئة البريد، على مشارف الخامسة والخمسين، أرهقته الأيام، فانحنى ظهره قبل الأوان، شعره شديد البياض، نحيل، ولكنه خفيف الحركة، يتحرك كالنحلة في هذا الفضاء الفسيح، ويقطن بمنطقة «**دار السلام**» بالقاهرة بشقة ٣ عمارة ١٦ بشارع « **فرج يوسف**»، وبعد انتهاء فترة عمله الأصلي يعمل في مطبعة «**الخطيب**» بقص وتغليف الكتب، كي يتمكن من الوفاء بمتطلبات الأسرة، ورغم أنه رجل فقير كان نظيف اليد، أثقلت أعباء الحياة ومصاريف أولاده المدرسية كاهله، وأصبح مدينًا بأكثر من خمسة آلاف جنيهًا، وبعض دائنيه يهددونه باللجوء إلى القضاء، وفي حالة عدم الدفع سيكون معرضًا للحبس، كان المسكين في موقف لا يحسد عليه، أولاده الخمسة عاطلون، وكلما التحقوا بعمل لا يكاد الراتب يكفي مصاريفهم الشخصية، الأول حاصل على بكالوريوس تجارة ويعمل قهوجيًا، والثاني حاصل على بكالوريوس علوم قسم طبيعة، ويعمل نقاشًا، والثالث «**سيد**» طالب دراسات عليا وباحث ماجستير في العلوم الزراعية، وكان ولده سيد شغوفًا بعمل أبحاث تزيد إنتاجية الفدان من القمح، ونجح في بحثه الأول، والآن يستكمل أبحاث الدكتور «**أحمد مستجير**» التي حققت نتائج مبشرة في إمكانية زراعة القمح بمياه تعادل ملوحتها مياه البحر، هو يريد إضافة نتائج الهندسة الوراثية حتى يحقق للوطن الاكتفاء الذاتي من القمح، هو لم

يعين معيدًا بالجامعة؛ لأنه ليس من أهل الحظوة، ويقوم بعمل أبحاثه على نفقته الخاصة، أرهق «**سيد**» الأسرة بكاملها معه، فالجنيهات القليلة التي يوفرها أخواه تذهب لدعم مشروعه، وعمل والده الإضافي، وقروضه لا تكاد تكفي تحقيق نتائج هذا البحث.

وزاد هذا البؤس أن ابنته «**رجاء**» بعد التخرج انضمت هي الأخرى إلى قائمة العاطلين، أما الابن الأصغر فترك الجامعة وقرر أن يعمل صبيًا ميكانيكيًا، فبعد أن جاء خطاب التنسيق بقبوله بكلية العلوم، أدرك أن مصيره لن يختلف عن إخوته، ورأى أن من واجبه أن يلتحق بالعمل ليخفف العبء عن والده.

تلك الحقائق تؤكد لـ«**سمير طايع**» أن مهمته في منتهى السهولة، اتصل بجاد أفندي وأخذ في التفاوض معه، وبسرعة تم الاتفاق على التصالح نظير دفع ديونه ومصاريف العلاج، لم يشأ «**جاد**» أفندي أن يطلب أكثر من ذلك فهو رجل طيب، ولولا ضيق ذات اليد لتنازل دون أي مقابل، ولكنه كان على أعتاب السجن فقد اتخذ بعض الدائنين بعض الخطوات الإجرائية في التقاضي.

كان من الممكن أن يتضاعف المبلغ، ولكنه ككل البسطاء اعتاد على الرضا بالقليل، فكل ديونه كانت لدعم بحث ابنه «**سيد**» من أجل دعم فكرة الأمن الغذائي للبلاد، رغم فاقته يشعر بالمتعة والرضا، وهو يقوم بدعم هذا المشروع، وكانت فرحته لا توصف عندما يحقق نجله خطوة إلي الأمام، الأبحاث الزراعية مكلفة، ومثل هذا البحث الهام لا يجد جامعة علمية تتبناه، كان يعلم مدى صعوبة الأمر ماديًا، ولكنه كان من بقايا زمن العلم الجميل، «**جاد**» أفندي لم يحصل إلا على الشهادة الإعدادية، ورغم ذلك يمتلك عقلية متفتحة، كان حزنه على ابنه الأصغر كبيرًا عندما قرر عدم الالتحاق بالجامعة، والنزول إلى سوق العمل، ولكن قيوده المادية جعلته يتألم في صمت.

تجهل «**ليلى**» عملية المساومة، وتظن أنها سوف تنال من «**ناجي**» وابنة خالته المتعجرفة، سوف تسجنه وتشفي غليلها، فعقب الحادثة مباشرة قامت باستخراج الشهادة والالتحاق بنقابة المحامين، ورغم أنها زارت «**رجاء**» عدة مرات بعد فك الحبس لم تسأل عن الأمر وشغلها العمل في المحاماة، كانت تذهب إلى نقابة المحامين بالجيزة، تعرفت على المحامي «**ممدوح**» ذلك الشاب المتعثر الذي يشكو من قلة العمل، تخرج منذ ثلاثة أعوام، لا يحقق عائدًا يذكر سوى بعض الجنيهات التي تعينه على استمرار الحياة، كان «**سمير طايع**» نجمًا لا يشق له غبار، وذائع الصيت بين أبناء المهنة، وها هو يدخل النقابة فيقف كل المحامين على اختلاف أعمارهم تقديرًا له ولكفاءته، كانت «**ليلى**» هي الأخرى تحصد اهتمامًا لا يقل عنه على الرغم من كونها لم تكمل سوى بعض أسابيع، هي كالعادة استطاعت أن تلفت إليها الأنظار بجمالها.

على الرغم من معارضة الأسرة الشديدة لهذه المهنة؛ كان لإصرارها على الالتحاق بمهنة المحاماة على درجة من القوة بددت كل المحاولات التي بُذلت لمنعها، في النهاية رضخوا لرغبتها على مضض، دائمًا تذكر أن أباها ما زال في حلقه غصة ومرارة لا تندمل، فهو بذل محاولات كبيرة كي يعينها في وظيفة حكومية، وكان الحصول على فرصة عمل في ذلك الوقت غير متاح للأسر المتوسطة، ولكن صديقه علاء مدرس اللغة الإنجليزية كان على صلة قرابة بمستشار الوزير، وقد حصل على وعد منه بفرصة عمل، بعد رفض «**ليلى**» رأت أمها «**هند**» أنه من العبث ترك مثل هذه الفرصة، وإن كانت «**ليلى**» ترفض العمل الحكومي، هناك «**رجاء**» ابنة أختها في أمس الحاجة لذلك، لاقي الاقتراح رضا الجميع وخاصة أنهم يعلمون الموقف الحرج لأسرة «**جاد**» أفندي، رحبت «**رجاء**» بالوظيفة وترعرعت أحلامها كما يترعرع الربيع بالأزهار، فلم يكن أحد من الأسرة يحلم

بذلك الحدث الجلل، وعمت الفرحة في القلوب البائسة، عندما نجت إحدى فسائلها من القحط.

مرت الأيام تارة باردة، وتارة قاحلة، وتارة متقلبة كمزاج الفتاة، ذات يوم على حافة تلك الخواطر السريعة التي ما زالت تدور في ذهن «**ليلى**» يفاجئها «**سمير طايع**» وهي وسط المحامين بإلقاء السلام، ردت عليه دون اهتمام، ولكن «**سمير**» تجاوز الموقف وبدأ يستدرجها في الحوار؛ كي يعلمها أن رفضها للتصالح ذهب أدراج الرياح، سألها عن رأيها في التصالح، كان ردها قاطعًا:

. **ليلى**: (**بسرعة دون تفكير**) في المشمش.

يبتسم «**سمير طايع**» ببرود وجهه الكالح، ويفتح الحقيبة منفوشًا كأفراخ الرومي تصيح هياجًا عندما ترى اللون الأحمر، ثم أخرج ورقة التصالح الموثقة بالشهر العقاري، وبادرها بكلمات صادمة):

. **سمير**: إن كل البشر يمكن شراؤهم بالمال، إن ثمن هـــذه الورقة كان قليلًا؛ لأن حجم صاحبها لا يساوي في سوق النقد أي قيمة.

. **ليلي**: (**بذهول**) ماذا تقصد؟

. **سمير**: انظري في هذه الورقة وستعرفي (يمد يده يناولها الورقة)

. **ليلى**: (تأخذها وتنظر فيها بلهفة، استشاطت غضبًا، رغم أن دمها قد فار من شدة المفاجأة، ولكنها تمالكت أعصابها واستجمعت قواها؛ لكي تنسحب دون انكسار، تصنعت الابتسامة ثم توجهت نحو سمير معنفة إياه)، لا داعي للفرح والبهجة فعندما يقوم محامي كبير بالفخر؛ لأنه تحايل على العدالة بالمال فهذا يعني أنه صغير جدًّا.

كان رد «**ليلى**» أمام جموع المحامين كما اللطمة على وجه خنزير، هذا الرد أثلج غرماءه، لم يتوقع أن «**ليلى**» سوف تكون بهذه الحدة، كانت كشفرة السكين الحاد الذي يجول فوق كبرياء تليد، فنزف منه هذا الكبرياء فوق الأرض، لم يتوقع أن ترد بهذه الطريقة، كان الرد بمثابة تعرية للوجه القبيح لبعض المحاميين، فعندما يقوم بعض رجال القانون بدور المحلل للخطايا والآثام؛ فإن المجتمع ينحرف نحو الهاوية، رد «**ليلى**» هو المتنفس للحقد الدفين من قبل بعض زملاء المهنة، فـ«**سمير طايع**» ذلك الأخطبوط يقتنص معظم القضايا التي تدر عائدًا كبيرًا، ويترك لباقي زملاء المهنة الفتات، مثل توثيق العقود، وقضايا الفقراء التي لا تدر سوى اليسير، لم يكونوا في معظمهم أحسن حالاً من «**سمير طايع**» من حيث المبدأ، فالكثير منهم يقفون معه في نفس الخندق، لا يتورعون عن عمل أي شيء يجهض القانون طالما أن الزبون سوف يدفع.

سبب الحقد هو استئثار «**سمير طايع**» بالغنيمة دونهم، شعروا بالارتياح عندما أطلقت «**ليلى**» هذا الرد المفحم، تملكتهم لذة كبيرة، كانت مفردات هذا الصراع منبلجة من البطالة، والعشوائية، فسقطت منظومة القيم من أجل البقاء، كانت تلك هي السمة التي تسيطر على عقول شريحة من أبناء هذه المهنة، فلا يوجد مجال أمام الكثيرين منهم لممارسة القضاء الواقف إلا بالتحايل على القانون، ولم تكن تلك الآفة في مجال المحاماة وحدها، بل كانت نفس الروح تسري في أغلب قطاعات المهن الحرة، باتت وسيلة النجاح المادي في مساحة كبيرة من هذه المهن؛ تقترن بالتحايل على القانون لصالح الخارجين عليه، «**ليلى**» تدرك ذلك جيدًا، فعندما كانت طالبة كانت تقوم بإعطاء دروس خصوصية لطلاب المرحلة الابتدائية؛ حتى تستطيع شراء ملابسها المميزة، ومساحيق التجميل.

كان مصروفها يسمح فقط بشراء ما هو ضروري، وتعلمت

منذ عدة أعوام كيف تتعامل مع سوق العمل، فعندما كانت تشرح بجدية كان الأطفال يتهربون منها، وتخسر موردًا كان من الممكن أن يدر دخلًا تنفقه على مظهرها الذي بات أهم ما تحرص عليه، غيرت أسلوبها وبدأت تلاعب الأطفال،وتحولت الحصة إلى جلسات سمر وطرائف، أدى هذا الأسلوب إلى تزايد الإقبال عليها كمعلمة،وأصبحت تنافس أرباب المهنة، فقد كانت تعلم مسبقًا طبيعة المجتمع، فلا يمكن لأحد أن يخاطب الهرم المقلوب إلا إذا انقلب معه، ولأن التصحيح أكبر من قدرات الفرد، أدركت منذ وقت مبكر أن فرص النجاح في عالم الزيف تقترن بالشذوذ عن قواعد الاعتدال، فقررت أن توظيف ذكائها الحاد في التعامل من أجل المال والإبهار فقط؛ هذا جعلها في أحيان كثيرة بعيدة عن إدراك جوهر الأشياء.

ربما كان مظهرها المغري وإقبال الشباب عليها من كل حدب وصوب يشعرها بنوع من المتعة أكبر بكثير من متعة التعمق، والتفكير الممنهج، لقد عادت «**ليلى**» إلى المنزل؛ وهى في منتهى السعادة، لقد ثأرت لنفسها رغم مرارة الانكسار.

عندما دخلت وجدت أخاها «**شكري**» في حالة من السرور، يبشرها بحصوله على فرصة عمل بدولة الكويت حيث أموال النفط الوفيرة، كان يحلم بأن يعود بعد فترة بمبلغ من المال يمارس به نشاطًا مستقلًا، ورث عن أبيه الجدية في العمل، ولكنه كان أكثر مرونة منه، أو ربما لأن طبيعة الدراسة العلمية تعطي العقل قدرة على توقع النتائج، والأحكام عند مطالعة المقدمات، كان رجلًا مرحًا متفائلًا، وكان الملاذ الآمن لـ«**ليلى**» دائمًا، يوافق على ما تريد ويدعم حقها في الاختيار، وكانت لا تستريح إلا إليه وتستودع عنده كل أسرارها،ولكن هذه المرة بالذات لم تفصح عن غيظها من «**ناجي**» رغم أن صوت فرامل السيارة ما زال يخترق أذنها مع خليط من مشاعر الغيظ الذي لا يهدأ، كانت تريد الانتقام منه بأية طريقة، لكنها لم تكن تعلم كيف يتم ذلك؟.

٧- الجيوب الخاوية

تمر الأيام متعاقبة كالبرق، و«**ناجي**» عاجز عن إقناع «**عبود بيه**»: أن تخلفه عن الموعد كان خارجًا عن إرادته، فـ«**عبود**» مصمم على عدم التعاون معه، اعتبره مستهترًا، ولم تفلح محاولات الاعتذار، ضاعت فرصة لن تتكرر، لم يكن هذا ما يؤرق ناجي فحسب، المشكلة الأكبر أن صورة «**ليلى**» باتت لا تفارقه، باله مشغول بها طوال الوقت، يجد نفسه يبحر في عينيها العميقتين بلا مجاديف، فتضربه أمواج اللوعة الحارقة بمقارع الشوق الغليظة، يريدها لكي يتقاسم العمر معها، يحلم بأن يشربها حبًا كما تشرب الدنيا الأيام، فلا يبقى منها خارج روحه فتيلًا، أصبحت شغله الشاغل، تفرغ لجمع المعلومات عنها، كمن يجمع الماء من بين قطرات الندى، وأصبح نيل ودها عنده أهم من إنقاذ المعرض من الإفلاس.

مرت ستة أشهر وناجي هائم في سماء العشق بلا جناح، يحلق فوق ذكراها يتحسس ما تبقى من نظرات حادة، استعذب سياط عشقها كالسجين الذي عشق ضربات جلاده، إنه حالة مستعصية على الفهم، كحالات الحب التي أرقت مضاجع الشعراء بالماضي، فكتبوا أرق المعاني، فحببوا الناس في الحب قبل أن يتذوقوه، ورغم أن عالم المادة قد طغى وتجبر؛ عندما قتل المشاعر وحولها إلى أموال سائلة، عاد الحب العذري في وجد الفتى من جديد، فأشرق النور من روحه يدغدغ الظلام الدامس، ويصرخ في الجميع:

- مازال الإنسان كائنًا حساسًا.

كان الفتى المكلوم بين قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، ولا توجد بضاعة لديه، وحل موعد سداد القسط الأول من الدين، كل الأمور أصبحت متداخلة، فقصة عشقه لـ «**ليلى**» كانت

من طرائف تلك المرحلة التي اختفت فيها معظم معاني الحب، وتقلصت منها لغة المشاعر، كانت المنازلة بين البشر، والزمن في هذه الفترة لا تتجاوز لقمة العيش، لقد هُدم جزءُ من بنيان المجتمع بالجوع الكافر، وأنَّى للسكارى أن يسمعوا منادي الحب في الوادي الذي ينزلق نحو حافة الموت، فالحي المريض ينعي الحي الفقير، وأصبحت حمر النعم في أيدي الأثرياء الجدد، لقد حجبت عن القلوب أصوات البلابل.

في هذا الفناء المتهالك لم تكن قصة غرام الفتى قضية ذات بال وسط تلك الأهوال، ورغم ذلك كانت كالحجر الذي حرك المياه الراكدة، فعاد الكثيرون يتذكرون أن قلوبهم قد خفقت يومًا ما، وما أحلى هذا الخفقان اللذيذ، فالأحياء بدون حب طاهر كالموتى في القبور.

كان شهر يوليو من عام ١٩٩٣ هو موعد استلام أول إنذار من البنك، حاولت أمه إقناعه بضرورة إبلاغ خالته «**تفيدة هانم**» كي تتدخل، فلو علمت سوف تدفع المبلغ، وتملأ المعرض ببضاعة دون أي مقابل، فحبها لـ «**ناجي**» لا يقل عن حبها لابنتها، فهي التي كانت ترعاه قبل زواجها، وكانت تقوم على كل شئونه، كان ينام في حضنها، وشب طوقه بين ذراعيها تسقيه الحنان، عاشت معه مشاعر الأمومة قبل أن تنجب، ربما كانت ميزة «**ناجي**» أنه يحب الاعتماد على نفسه، ولا يطمع في أموال الآخرين، عزة نفسه كانت من أسباب تعلق الجميع به، أدركت «**تفيدة هانم**» أن كل من يتقدمون لخطبة ابنتها «**فواكه**» يطمعون في ثرائها، أما «**ناجي**» فهو الشخص المؤتمن عليها؛ لهذا كانت تلح في إتمام زواجه من ابنتها.

منذ تلك الحادثة المشئومة، بدأ «**ناجي**» يتهرب تدريجيًّا من الحديث عن الزواج، وهذا التهرب بدأ يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، شعرت به «**تفيدة هانم**» وأدركته «**فواكه**»، وتيقنت أمه

بعد أن أفصح لها بعدم رغبته بالزواج من ابنت خالته، ولكنها لم تجرؤ على نقل هذه الرغبة لأختها، كانت تخشى عليها من آثار الصدمة، ولاسيما أنها تعلم مدى تعلق «**فواكه**» بـ «**ناجي**»، وسط هذه الأحداث مازال «**ناجي**» هائمًا في عشق «**ليلى**» كما يهيم الرضيع بثدي أمه، صورتها تطارده في منامه ويقظته، ولا يعرف السبيل للبوح بذلك الحب، الذي بدأ ينمو بداخله حتي صار عملاقًا، ولا يمكن إخفاؤه، سهده يكاد أن يشي بحاله.

صديقه «**رضوان**» كان على بينة من الأمر، وكثيرًا ما كان ينصحه بعدم التفكير في هذه المرأة الخلابة، فقد كان يصفها بالسراب، ويشبهها بالنداهة التي تقود من يقترب منها إلى حتفه، كان العاشق المتيم يرفض هذا التحليل، ويصفه بأنه ظلمٌ لـ«**ليلى**»، وهي أيضًا لم تكن كذلك، فهي حالمة بمستقبل مشرق، وقلبها الأخضر كالربيع ينثر الرحيق فوق كل الناس، ترى هل يظفر الفتى بهذا القلب يومًا ما؟

يعيش«**ناجي**» بين الرجاء والأمل، يلسعه لظى الغرام، ويضربه شبح الإفلاس، لقد تحول عن مشروعه، وبجنون العشاق ألقى المعرض خلف ظهره، لم يشغله انهيار نفسه، بات يقاتل من أجل مشروع آخر، ألا وهو الاستحواذ على قلب المعشوقة، يحلم بأن يضمهما منزل واحد، بل تمنى أن لا يراها أحد غيره، يريدها لنفسه فقط، كثيرًا ما كان يتمنى أن تذوب بين جوارحه، ولكن كيف له أن يصل سالمًا نحوها؟ المشكلة لديه لم تكن في الاعتراف بالحب، ولكن في كيفية غرس هذا الحب في قلبها؛ لتنبت منه المشاعر كالأغصان الباسقة، فيحصد من الأحاسيس أزهارًا بهيجة.

يمتلك «**ناجي**» شقة متوسطة مكونة من ثلاث غرف بالدور الرابع بمنزل رقم ١٧ بشارع «**أحمد ذكي**» بمنطقة «**المعادي**»، ربما تبقى بعض الأمور البسيطة لإتمام الزواج، ويمكن تدبيرها

بسهولة، ما زالت مشكلة ميراث أبيه عالقة، وعمه يرفض إعطاءه حقه، الميراث فدانان،ولا يوجد مع «**ناجي**» أي أوراق تثبت هذا الحق، وهو لم يشأ أن يخوض صراعًا قانونيًّا حول هذه الأرض، فطالما أن أباه لم يفعل ذلك من أجل صلة الرحم، هو أيضًا يسير على نفس النهج برًّا بأبيه الطيب.

كان يدرك أن النجاح في مجال التجارة كفيل بتعويضه عن هذا الميراث، و يدرك أيضًا أهمية الأرض في أعراف الصعيد، فهي بالنسبة لهم كالحياة، يلتمس الأعذار لعمه، فهو لن يستطيع تدبير ثمن هذه الأرض، صحيح أن هذا لا يعطيه الحق في حجبها عنه، ولكنه كان قد قرر غلق هذه الصفحة، والآن أيضًا لم يشأ أن يفتحها، رغم أنه في مأزق لا توجد معه سيولة تسمح له بسداد دينه أو بشراء بضاعة بالقدر الكافي، البنك بدأ في إعلانه بإجراءات الحجز على المعرض الذي أسسه ودفع فيه كل قرش يمتلكه، كان المبلغ المطلوب ١٠ آلاف جنيهًا، بدون علمه- استطاعت أمه تدبير ألفيي جنيهًا، كانت تدخرهم لأداء العمرة، و«**رضوان**» استطاع أن يدبر خمسة آلاف جنيهًا، ذهب بهم إلى البنك ودفعها وباقي ثلاثة آلاف، عاد «**رضون**» ومعه إيصال الدفع وأعطاه لصديقه، وأبلغه أن البنك سيمدد المهلة شهرًا بسبب الجدية في إجراءات السداد، فرح «**ناجي**» بالخبر أشد ما يكون الفرح، المشكلة في سبيلها إلى الحل، باقي ثلاثة آلاف.

قرر أن يجتهد، ف«**ليلى**» لن تحب رجلًا مفلسًا، ومن هنا قرر إيجاد حل سريع، هو يمتلك علاقات ببعض تجار الجملة، بدأ في سحب بضاعة بالأجل، ونشط في عمليات التسويق سواء في معارضه أو مع تجار التجزئة، كان يعطيهم البضاعة نقدًا ويتعامل مع موردي الجملة بالأجل، فلم يمر أسبوعان حتى استطاع سداد باقي القسط المتأخر، ولكن كان ذلك عن طريق تأجيل الدفع لتجار الجملة.

علمت «**تفيدة هانم**» خالته بما حدث قدرًا ، ذهبت إليه وعنفته على عدم اللجوء إليها ،وقامت بشراء بضاعة ملأت بها المعرض، وحررت له شيكًا بعشرة آلاف جنيهًا ، تحول هذا الموقف إلى قيد طوق عنقه. كانت «تفيدة» خالته امرأة من زمن الوفاء، تقدر القيمة قبل المال، حنونة ، شديدة السخاء والكرم، طالما كان هذا الكرم في محله.

اليوم باتت المشكلة من وجهة نظره أكثر تعقيدًا ، ورغم أن خالته لا تربط دعمها بأي إلزام عليه، فحبها له غير مقترن بأي شيء ، فهو عشق فطري مبني على صلة الرحم والقرابة ،وشخصية «**ناجي**» المتزنة.

٨- الاستدراج

كانت «**ليلى**» خلال الشهور الماضية، تحاول إيجاد موطئ قدم لها في مهنة المحاماة، فرغم أنها كانت في حالة غيظ من موقف «**جاد**» أفندي زوج خالتها، لكنها أدركت أن إنقاذ الأسرة من الديون ربما كان صائبًا، في ظل هذه الظروف الاقتصادية العصيبة، كانت تخرج مع «**رجاء**» أحيانًا للتنزه على كورنيش النيل، ورغم الغزو المستمر للشاطيء من قبل بعض أصحاب النفوذ، لاستغلاله في مشاريع سياحية، إلا أن هناك مساحة أخرى ما زالت باقية وتسمح لعشاق هذا النهر الخالد بالتريض حول مجراه.

تفضل «**ليلى**» الضفة الغربية من النهر عند التريض مشيًا، ولاسيما في منطقة شارع «**محمد عبد الوهاب**»، المنظر هناك يبدو كأنه لوحة فنية ساحرة، وخاصة بجوار حديقة «**الأندلس**»، كانت تصطحب «**رجاء**» إلى هناك لتستمتع معها بعبق النهر، ومن كثرة ترددها على المكان أصبحت صديقة لبائع السميط «**حسين**»، وبائعة الورد «**فلة**»، وهما من سكان منطقة «**الدويقة**» تلك المنطقة العشوائية في **وسط القاهرة**، كانت دائمًا ترى لغة تحمل مشاعر حب صادقة، تجمع بين «**حسين**» و«**فلة**»، فرغم العشوائية في التعامل، وسوقية الألفاظ التي يتبادلونها، ترى عيونًا مملوءة بالعشق، كانت تحترم تلك التجربة التي نبتت في أرض ملوثة ببعض الآثام، كانت تربطها «**بحسين**» علاقة ود جريئة، على الرغم من أن مثل هذا النبت الشيطاني لا يؤتمن، من الوارد أن يلدغ العقرب كل من يقترب منه، ولكن «**ليلى**» كانت تمتلك هيبة ورهبة تغلفان الجمال، وهذا قد يمنع الآخر أن يتجاوز الحدود الفاصلة، تطور الأمر فيما بعد وكان «**حسين**» يجلب لها بعض أرباب السوابق كزبائن، في قضايا السرقة بالإكراه أو المخدرات أو الاغتصاب، كانت «**رجاء**» تنتقد تلك

الجرأة وتحذرها من الاقتراب من وكر الثعابين، لكنها كانت على درجة من الشغف، تدفعها لخوض أي تجربة، ورغبتها في النجاح أقوى من أي نصيحة.

مرة أخرى تتقابل «**ليلى**»، مع «**سمير طايع**» في نقابة المحامين بالجيزة، هذا اللقاء أخذ منحى جديدًا، فقد بدأ يتودد إليها واعتذر بلغة الدبلوماسية عما سبق، هذا الزير المخضرم، كان يرى فيها نموذجًا جديدًا من النساء يستحق التنازل، وأخيرًا اعترف لنفسه أنها هزمته بجمالها، بدرجة تفوق النقاط التي حققها بانتزاع التصالح مع «**جاد**» أفندي بالمال، رغمًا عنها.

كان يرى أن مثل هذه المرأة الجامحة، تحتاج إلى صياد ماهر يستطيع نصب الكثير من الشراك بحكمة، فهي من تلك النوعية التي يصعب ترويضها بسهولة، يدرك أن الوقت قد يطول، قبل أن يصطاد تلك الفريسة، كان مقتنعًا بأنها تستحق المغامرة، مهما طال الانتظار، في بداية الأمر أثنى على موقفها القوي وعدم رغبتها في التصالح؛ لأنه بالفعل كان هناك استهتار،ولكنه كمحامي من واجبه تبني مصلحة موكله، كلمات الإشادة والإطراء ترضي غرور المذبوحة بمعسول الكلام، ودائمًا ما كان ذلك الزير يستخدم كلمات ساحرة تطرب لها آذان النساء، ولم لا !، فقد احترف إلى جانب مهنه المحاماة موهبة اقتناص الإناث، كانت «**ليلى**» من نوعية خاصة، فمن الصعوبة فهمها، وأيضًا من الصعوبة الإيقاع بها، على أية حال، تطور الأمر وأصبح هناك نوع من الود يجمع بينهما، حتى أن «**سمير طايع**» فاجأها بعرض سخي، عرض أن يدربها عنده في مكتبه، كان العرض مغريًا، فالتدريب عند محام مثله فرصة، يحلم بها كل راغبي احتراف المحاماة، خيل إلىَّ هذا الإلعبان أنه قد نجح في أول خطوة، أصابه الغرور كما يصيب الوباء البدن، وعندما وافقت «**ليلى**» بدأ يحرك رابطة العنق من أعلى عدة مرات بحركة غير إرادية، كأنه يضبطها أو يحافظ

على شكلها ، كان يحرك ياقة القميص كطاووس انتابته حالة من الزهو بنفسه.

كانت «**ليلى**» تنتظر مثل هذا العرض بفارغ الصبر، وكانت واثقة من أنه قادم، رغم أنها كانت تتمنى ذلك بشغف، إلا أنها بدلال المخضرمة وتمنع الراغبة، وعدته بأنها سوف تفكر في الأمر، تصنعت عدم الاهتمام، كانت تعلم مدى سحرها على الرجال، فهي تدربت منذ الصغر على انتزاعه، وهذا الخنوع كثيرًا ما كانت تصنعه بفعل سحرها، بالفعل كانت موهبتها الأولى هي خلق اهتمام الآخر بها، تلك الموهبة كانت تفوق جمالها عشرات المرات، فالجمال بدون عقل موهبة هوجاء، وأخيرًا بدأ ذلك المتصابي المغرور، يتوسل إليها في قبول عرض هي في أمس الحاجة إليه، هي تتصنع الرفض وهو يلح في الطلب، وأخيرًا حققت ما تريد ،دخلت مكتب محامي من أقدر رجال القانون كأنها فارس مغوار فوق جواد الفاتحين، وذلك مع صباح يوم السبت في الأسبوع التالي من اللقاء، كان المكتب فخمًا، ويقع بالدور الثالث بالعقار رقم ٦٥ بشارع البطل «**أحمد بن عبد العزيز**» بحي «**المهندسين**» بمحافظة «**الجيزة**».

وفيما يبدو أن «**سمير طايع**» قد أدرك أنها صيده الثمين من الصعب النيل منه بسهولة، ولكنه تحدى نفسه، وأقنعها بأن ذلك من الممكن أن يحدث مع الوقت وبلا تعجل.

قضت «**ليلى**» بضعة شهور تعمل بجدية منقطعة النظير، تمرست أن تضع يدها على الثغرات القانونية، وفك شفرات القضايا الصعبة، بدأت تستقل ببعض القضايا لحسابها، وكانت تستعين بـ«**ممدوح**» المحامي الذي التحق بالعمل معها في مكتب «**سمير طايع**»، وذلك نظير نسبة من الأجر، كان «**سمير طايع**» يغدق عليها بالمكافآت، حتى يفلح فيما بعد في استدراجها، تارة يدعوها لبعض المناسبات العامة، وفي بعض الأوقات عندما

تكون عائدة معه من المحكمة، يتعمد المرور على بعض المطاعم الفاخرة، ثم يدعي الإحساس بالجوع ويدعوها لتناول الطعام معه، «**ليلى**» تدرك أنه يخطط جيدًا لمثل هذه المواقف، ولكنها كانت تتعامل معه بأسلوب مبتكر، وكثيرًا ما كانت تنجح في تحويل مجرى اللقاء إلى دفة أخرى، غير التي يسعى إليها «**سمير طايع**»، كانت تبذل مجهودًا غير عادي في العمل، فبعد انتهاء مواعيدها في المكتب، تحرص على حضور الندوات القانونية، ودورات التنمية البشرية، كانت تدخر كل جنيه تحصل عليه، كانت تنفق بصعوبة ربما تأكل ساندويتشًا واحدًا طوال اليوم، إلا أنها لم تكن تبخل على مظهرها؛ لأنه رأس مالها حسب تصورها.

في غمار رحلة الكفاح كان صديقها «**سامي السلاموني**» ابن رجل الأعمال والسياسي الشهير «السلاموني بيك» يصبو إليها، كان شابًا مدللاً، ناعمًا، مستهترًا، متوسط الطول، بشرته داكنة، وعيونه سوداء، أقصى خبرة لديه؛ ارتداء الملابس الفاخرة، ومتابعة أحدث قصات الشعر، أما المهارات الفائقة الآخرى؛ كانت حب الرقص في الكبريهات، وصالات الديسكو، وتربية الكلاب من فصيلة «**البوكسر**»، كان شغوفًا بـ«**ليلى**» يطاردها دون توقف، مغرم بها؛ يريدها بأي طريقة، كان ينفق على النساء بسخاء، فمصروفه اليومي يساوي مرتب أستاذ الجامعة في شهر، لم يكن طالبًا عاديًا، فخاله صاحب نفوذ كبير في الحياة العامة، والكثير من الأساتذة يترددون إليه، لدرجة أن عميد الكلية في بعض الأحيان كان يأتي المدرج ليسأل عنه، هذا لم يكن بالطبع من أجل عيونه، بل لأنه ينحدر من حاشية أهل النفوذ، وبكلمة منه يمكن أن يطيح به، أو برئيس الجامعة.

كانت روح العناد داخل «**ليلى**» تجعلها تصر على رفضه، ربما تتعامل معه على أنه صديق تكره سطوته وغروره، واستهانته بالبشر، لم تفلح محاولات الإغراء مع «**ليلى**» فقد

سابق هذا الجرو الصغير الكلب المخضرم في محاولات النيل منها، فلغة الابتذال متشابهة، وعقيدة المنحرفين واحدة، كانت الفتاة تعلم أنها بالنسبة لابن «**السلاموني**» مجرد نزوة عابرة، تحولت عندما استعصت عليه إلى حالة نفسية، لا يمكن شفاؤها إلا باقتحام أغوار هذه الأنثى، وعندما فشل «**سامي**» في النيل منها قرر الزواج بها، في البداية كان أبوه من أشد المعارضين، ولكن أمه عندما أدركت تشبث ابنها حاولت إقناع «**السلاموني بيه**» بالموافقة، كانت تعتبر أن ما فشل فيه ابنها في الحصول عليه بالإغراء، يمكن أن يناله بالزواج ولو لمدة أسبوعين وبعدها يطلقها، كانت ترى أن دور المال هو تحقيق المتعة، وشراء الفقراء من النساء أو الرجال من بين هذه المتع.

كانت الأم تريد أن تمنح ابنها المدلل هذه الفرصة، في النهاية رضخ «**السلاموني بيك**» لطلبها، وذهبت هي بنفسها معه لطلب يد «**ليلى**»، وعرضت من الإغراءات ما جعل أسرتها تفقد عقلها، فلم يكن أحد يتصور أن ابن ذلك الثري الكبير يمكن أن يتزوج ابنة مدرس اللغة العربية، نظرت «**ليلى**» إلى هذا العرض على أنه محاولة لكسرها، هي تعرف «**سامي**» جيدًا، أدركت أنها كاللعبة، سوف يلهو بها طفل صغير، رغم كل ذلك هذا فإن العرض المالي جعلها تعيد التفكير، فسوف تمتلك شقة كبيرة جدًا باسمها، وذلك بمساكن «**منتصر**» الجديدة بمنطقة «**الطالبية**» بين شارعي «**فيصل**» و«**الهرم**» بمحافظة «**الجيزة**»، وشبكة باهظة، وسيارة، ومؤخر الصداق قدره مائة ألف جنيه.

كل ذلك في زمن الجفاف كان كفيلًا بتغير اتجاه الموقف، لم تكن تلك الإغراءات من فراغ، كانت «**راوية هانم**» تعلم مدى رفض «**ليلى**» لابنها، ولديها شعور دفين للانتقام منها وكسرها بأي ثمن، أنها لن تنسى يوم أن ذهبت «**ليلى**» مع

ابنها إلى السينما،وعندما حاول تقبيلها لطمته على وجهه، وبعدها تناوب الحضور على ضربه وكسرت يده، كانت «**ليلى**» قد أخفت الأمر عن أسرتها فيما عدا أخيها «**شكري**»، الذي نصحها بعدم إخبار أحد، وقتها كان الموقف قد أخذ اتجاهًا خطيرًا، غضب «**السلاموني بيه**»، واتصل بمأمور العمرانية كي ينتقم منها، ويلفق لها قضية آداب.

المأمور وقتها شعر بالخوف والذعر، وتداخلت عنده مشاعر الشهامة بالخوف؛ فتظاهر بالقبول وصمم بينه وبين نفسه على الرفض، كان يخشى من نفوذ «**شوكت بيه**» « أخو «**راوية هانم**» ولكن «**سامي**» عندما علم بذلك أخذ يبكي ويستعطف أمه أن توقف الأمر؛ لأن ذلك لو حدث لن ينال من «**ليلى**» ما يريد.

نظرات التوسل في عين «**سامي**» كانت تهوي كالسكاكين على قلبها، فلم تتعود أن يشعر ابنها الوحيد بالحرمان، كانت تتصور أنها بالمال تستطيع شراء كل البشر؛ لذلك قررت الأم تلبية رغبة وحيدها، اتصلت بالمأمور لوقف أي إجراء ضد «**ليلى**» ففرح المأمور بذلك، ونُدت تلك المؤامرة الخبيثة قبل أن تبدأ، أنقذت رحمة رب العباد المسكينة وأسرتها من عار لا يمحى.

فخطة الأم الخبيثة هي أن يتم الزواج، ولو أسبوعًا وبعدها يتم الطلاق لكسر هذه الفتاة ولو باسم الشرع، لم يكن أحد يدرك هذا، ولكن «**ليلى**» كانت تستشعر رائحة المكايدة، أن هذا الزواج هو محاولة جديدة لكي ينال منها «**سامي**» رغبته بأسلوب جديد، كانت تعلم عنه الكثير فهو كثيرًا ما يتزوج الفتيات عرفيًا تحت إغراء المال، وبعدها يتركهن بعد رحلة خداع متقنة، فبعضهن من أسر فقيرة يتوهمن أن ذلك أمرًا مؤقتًا، وسوف يتبعه زواج شرعي، الفقر والبطالة

وحلم الثراء هو السيف الذي يلقي بهن في المجهول، الصراع هذه المرة بين سطوة المال وقوة الإرادة، فمنطق بعض أثرياء الفساد هو إمكانية شراء البشر بالمال، يتصرفون وكأنهم أعادوا سوق النخاسة من جديد، كل هذا كان يدور برأس «**ليلى**»، بيد أن إغراء المال كان قويًا.

وما زال «**سامي**» في انتظار الرد، والأسرة الطيبة تدفع ابنتها بكل قوة نحو قبول هذا الزواج، مما يجعل أحلام «**ناجي**» في«**ليلى**» تبدو كالسراب.

٩- الصعاليك والمال

كانت «**راوية هانم**» زوجة «**السلاموني**»، تمثل الوجه الخسيس، فقد اعتادت أن تشتري أي شيء بالمال كزوجها، سطحية في كلامها، تدعي التحضر بنطق بعض الألفاظ الأجنبية بالخطأ، ترتدي أزياءً تعري جسدها، فيظهر جلدها المكرمش، أما شعرها المصبوغ باللون الأصفر لايناسب سنها، ولم تفلح جراحات شد الوجه في جبر ما أتلفه الزمن.

عادت مع المساء إلى الفيلا التي تقطن بها في منطقة «**حدائق الأهرام**» الفاخرة، بالقرب من منطقة الأهرام الأثرية، فبعد زيارة أسرة «**ليلى**» كانت تشعر بالزهو، وتعتقد أنها نجحت في إغرائهم بالمال، تملكها شعور طاغ بالسعادة، لم يكن هناك أي ضير في أن تتكلف تلك الزيجة نصف مليون جنيه، فهذا مبلغ ضئيل بالنسبة للأموال التي يمتلكونها، المهم أن تحقق لابنها تلك الرغبة المستعصية، لم تكن للمشاعر الإنسانية لديها أي اعتبار، ولم لا! فهي ابنة أحد زبالي القاهرة المجتهدين، كان أبوها في بداية الأمر يعيش من جمع القمامة نظرًا لفقره، وتطور الأمر وعلم أهمية ما تحتويه القمامة من كنوز، بدأ يفرز الزبالة ويعزل الحديد، والورق، والمخلفات الأخرى، ثم يبيع كل منها على حدة، تطورت أحواله تدريجيًا وأصبح من الأثرياء، التحق أولاده بالتعليم فدخل «**شوكت**» جهاز الشرطة حتى أصبح ضابطًا كبيرًا، و«**راوية**» تخرجت من كلية الآداب، كان زواجها من «**السلاموني**» فيما يبدو نتيجة لقصة حب ماجنة، ولكن الحقيقة أن «**السلاموني**» كان يتملق تلك العائلة الوضيعة، مستغلًا صداقة والده السكير بوالدها، فبعد أن تحقق الثراء لـ«**جودة**» أبيها، كان «**السلاموني**» يرى أن هذا الزواج هو الخلاص من الفقر.

نشأ «**السلاموني**» قرب منطقة الدويقة العشوائية، والتي تعج بمختلف الشرائح بعضهم من جار عليه الزمان، وبعضهم جار علي الزمان، وبعضهم من دفع رغمًا عنه إلي الجهل دفعًا؛ فسقط كما يسقط الذباب. ومعظم هؤلاء كانوا من المقهورين، كل أمالهم أن يعيشوا كرامًا، بعضهم يبحث بين مقالب القمامة عن كسرات خبزًا تقمن صلبه، فإذا وجدها يهرول ويبحث عن حائط يعتصم به من العراء، وغالبًا لا يجد هذا الحائط؛ فيهيم علي وجهه مصلوبًا في الضياع.

وبعضهم من يصرخ من الألم ولا يجد من يعالجه، فيرتد الصراخ من فوره صدىً كالسيف يمزق الجسد العليل أربًا أربًا؛ فيتمني الخلاص بالموت فلا يجد إليه سبيلاً، بيد أن تلك الآلام تبقي أسفل الرماد مندثرة، وتطفوا فوق الأغلبية المطحونة بالشقاء قلة قد أحترفت الجريمة، فيُأخذ كل المقهورين بالمناطق العشوائية ظلمًا بذنب شرذمة من الأوغاد، وقد صُبغ السلاموني بخصال تلك الفئة الباغية.

كانت أسرته تقطن بمنزل عشوائي من غرفة وصالة، ليس له رقم، وأبرز معالمه أنه بجوار مطعم فقير، وخلفه كشك للعطارة، وكان أبوه «**عنتر العربجي**» سكِّيرًا، ينفق كل ما يكسبه في الصباح، على النساء الساقطات من تلك الطبقة العشوائية في المساء، وكثيرًا ما كان «**السلاموني**» يصاحب أباه، وهو يقوم بتوصيل اللحوم من المذبح بـ«**مصر القديمة**» إلى محلات الجزارين، كان أبوه يقوم بسرقة قطع من اللحم بمشرط أعده خصيصًا لذلك، ليقطع من كل ذبيحة بعض القطع، كان آخر اليوم يدفع بتلك اللحوم لبعض الساقطات، نظير قضاء بعض الدقائق في ممارسة البغاء، وذلك خلف سور قديم، أو خرابة، أو منطقة المقابر، كانت رائحة اللحم والدهن تفوح من جسده نظرًا لاختلاط اللحم بالعرق، في ذلك الجراب الذي كان يربطه حول وسطه حتى يخفي فيه ما يسرقه، وأيضًا كانت النساء اللاتي

يضاجعهن مصدرًا للروائح الكريهة، فهذه النوعية من النسوة كانت لا تستخدم المياه في النظافة إلا نادرًا، وتفوح منهن روائح نتنة، بداية من الفم حتى الثغرات الحساسة في أجسادهن، كان «**السلاموني**» على علم بما يفعله أبوه، وكان في أحيان كثيرة يقلده.

كان «**عنتر العربجي**» لا يقوم بتوصيل شيء يمكن أن يسرقه، إلا قام بذلك، وكان مسرفًا على عكس صديقه الزبال «**جودة**»، الذي كان يحافظ على كل مليم يكسبه، طبعت في أعماق «**السلاموني**» منذ الطفولة أمراض السرقة، والعلاقات الآثمة، والخسة، اكتسب من والده العربجي القدرة على المناورة، والكذب، والانحلال، في بداية الأمر كان زميلًا لـ«**راوية**» في المدرسة حتى مرحلة الثانوية، كان لا يعيرها بالًا، ولكنه بعد مرحلة الجامعة وبعد أن علم بالثراء الذي هبط على أسرة أبيها من السماء تغيرت لهجته معها، كان أخوها الأكبر «**شوكت**» متفوقًا في دراسته ولذلك التحق بكلية الشرطة، كان هذا النبأ بمثابة الزلزال الذي هز ضواحي منطقة مصر القديمة التي كانت تضم على أطرافها شريحة من الحرافيش، وأصبح «**جودة**» الزبال يحظى بمكانة عند هذه الطائفة تفوق مكانة المحافظ نفسه.

كان «**جودة**» رغم ثرائه، ما زال يرتدي جلبابه القذر، ولم يطرأ عليه من تغيير سوي شراء المنزل بشارع «**السد**» بحي «**السيدة زينب**» ولم يتخلص من صداقة «**عنتر العربجي**»، بل كان يميل إليه ويحبه، وكان أحيانًا يتقاسمان التناوب على امرأة ساقطة خلف صناديق القمامة، مرت الأيام وتخرج «**السلاموني**» من كلية الزراعة، و«**راوية**» من كلية الآداب.

اجتهد «**السلاموني**» في غزو قلب «**راوية**»، أملًا في نصيبها من الميراث فيما بعد، ولكن «**شوكت**» كان ينفر من هذا

التقارب، وأيضًا لم يتقدم أحد لخطبة «**راوية**» من أبناء الطبقات الثرية، بسبب أصلها البسيط، وصورة أبيها القميئة تمنع أي رجل ولو من الطبقة المتوسطة في أن يفكر في مصاهرة هذه الأسرة.

كان «**شوكت**» يستنكف قبول ابن العربجي، ولم يكن «**السلاموني**» بالرجل السهل، لقد أدرك أن موازين القوى في غير صالحه، فالذي يحكم سلوك محدثي النعمة من هذه الطبقة أمران: الأول هو أن المال سيد الموقف، والثاني هو القهر والإرغام.

كانت خطة «**السلاموني**» المفلس، أن يقهر هذه الأسرة في عرضها، لأن هذا هو الضمان الوحيد للفوز بـ«**راوية**» وثروتها، واستطاع أن ينفذ فعلته في أحد مقالب القمامة الخاصة بـ«**جودة**»، كان المكان هو القاسم المشترك لما تحويه نفسيهما من وضاعة، وبعدها توالت اللقاءات وتحت قهر العرض، والعار لأسرة لا تعنيها تلك المعاني إلا من حيث الشكل تم الزواج.

بعدها بعدة أعوام مات العربجي والزبال، وقبل الدفن حدثتة مشاجرة بين «**راوية**» وأخيها حول الغنيمة، فقام الزبالون وبعض المعارف بأقناعهما بتأجيل توزيع التركة بعد القسام بواجبات الدفن، وفي اليوم الثاني تم توزيع الميراث، ورغم مرور بضع سنوات على الزواج لم تنجب «**راوية**»، وهذا يؤرقها، طافت على العديد من الأطباء، ولم يكن هناك سبب طبي يمنع الإنجاب، وعندما يئست رزقها الله بعد طول انتظار بـ «**سامي**» ولم تنجب بعده؛ ولذا تدللّه وتستجيب لكل طلباته.

أما «**السلاموني**» كان لا يفكر سوى في تحصيل الثروة، ولم يكن هناك نشاط مشروع يمكن أن يحقق هذا الثراء السريع، عام ١٩٨٢ كان نقطة الانطلاق، عندما قرر خوض غمار تجارة المخدرات، وأصبح من أهم مروجيها، ولم تستطع أي أجهزة أمنية رصده، ولكن الأمر أخذ يضيق حول تجارة الصنف، عام ١٩٨٥م، فقرر تجميد نشاطه حتي تهدأ الأمور.

لاحقًا احتفل «**السلاموني**» برواج تجارة الكيف، وبعدها قرر تطوير طريقة النصب، فقام بإنشاء جمعية خيرية، وانتقل إلى فيلا بحي الهرم بالجيزة وأخذ يتبرع بسخاء للمرضى والأيتام، رغبة منه في غسل الماضي، وتمهيدًا لنيل عضوية البرلمان؛ لأن حصوله على الحصانة سوف يسهل مهمته، وعلى الجانب الآخر فقد كان يحظى بدعم «**شوكت**» أخو زوجته الذي تم فصله من جهاز الشرطة لسوء سلوكه، فالتحق بالعمل السياسي فزداد نفوذه أضعاف ما كان عليه.

بدأ نجم «**السلاموني**» هو الاخر يلمع، عندما اقترب من أصحاب النفوذ، حتى استقر في صفوف البرلمان، لم يكن «**السلاموني**» في تلك الفترة متفرغًا لتجارة المخدرات فقط، بل كانت النساء تحتل في حياته حيزًا كبيرًا، فما زالت صورة أبيه مطبوعة بداخله وكانت معظم علاقاته مع الساقطات من أبناء تلك الطبقة المقهورة، كانت زوجته «**راوية**» تعلم ذلك، ولكنها تتظاهر بعدم المعرفة حفاظًا على بيتها.

كان «**السلاموني**» مصممًا على رفض زواج «**سامي**» من «**ليلى**» خوفًا على الثروة، لذا يريد أن يزوجه ابنة أحد الأثرياء حتى يضمن له ميراثًا كبيرًا، لم يكن من السهل الحصول على موافقته، ولكن «**راوية**» فاجأته بعلمها بوجود علاقة جنسية بينه وبين الشغالة «**دعاء**»، تلك المفاجأة أخرسته، لم تكن أسرة «**ليلى**» تعلم كل هذه الحقائق؛ ولذا كانت تعتبر أن السماء أمطرت خيرًا وفيرًا، مع أن الشر ينتظر تلك الفتاه المسكينة إذا حسمت أمرها بالموافقة على هذا الزواج.

١٠- شرارة الحب

لم يكن «**ناجي**» طوال هذه الفترة صامتًا، كان يبذل قصارى جهده ليتقرب إلى«**ليلى**»، حاول التحدث معها عدة مرات وكانت تصده، أو ترد عليه بعبارات حادة، لم يفقد الأمل، كيف للفتى إشعال شرارة الحب الأولى في قلب الفتاة، وهي تمطره بوابلٍ من الرفض، فتطفئ الوميض قبل أن تشتعل للغرام جذوة في قلبها، كيف له أن يزرع قبسًا من نور قلبه، فوق فتيل الهوى في بؤرة فؤادها.

عقد العزم أن يكررالمحاولة دون ملل، ربما تنطلق الشرارة الفاصلة يومًا ما، في الصباح قبل أن تغرد الطيور في أوكارها، استيقظ يتلو مع النور تراتيل الغرام، صعد فوق الخيال يؤذن في العاشقين ألا من دليل هدي للحائر بين وديان الهوى، لم يجب نداءه رجع الصدى، انكب على ذاته تحمله الأشواق نحو الحبيبة، لعله يدك قلاعها؛ فتفتح الأبواب ليصعد عرشها مرويًّا، هل حان للأمل البعيد أن يأتي؟.

هداه خياله إلى أن يذهب وينتظر أمام المحكمة، استجاب لخياله الحالم، وذهب منذ بداية اليوم يتتبعها منذ خروجها من المنزل، مرتبكًا ملهوفًا يكسو الحياء وجهه، توقف بالسيارة أمامها عارضًا عليها خدمة التوصيل للعمل، كانت حرارة الوجد تعبق حروف الكلمات، وعندما لمحت عطر المحبة يفوح بالعيون، لانت في هذه المرة، شكرته دون أن تصخب أو تبتسم، أما في المرات السابقة عندما كان يتحدث معها، كانت ترده بحدة الجلاد، يا فرحة قلب المحب حين يلقى الحبيب فيجده غير متبرم، كانت لهجتها متزنة، شعر الولهان أنه تقدم قيد أنملة، فلأوّل مرة يختفي التشنج من صوتها، تسمر في مكانه راح يستعطف الزمان أن يدفعه للتقدم خطوة أخرى، فأول الغيث قطرة.

يبدو أن «**ليلى**» بدأت تغير من موقفها، ما هو السر، هل حدث ما يدعو لذلك؟، كانت بداية التحول منذ فترة، في السابق عندما كانت تمر أمام معرض «**ناجي**» دون أن تعرف أن صاحبه هو من كاد يصدمها، كانت ترى الحياة تدب فيه، ولكن تغير الحال، وأصبح المعرض خاويًا، ثم عادت إليه الحياة مرة أخرى، كان يشغلها أن تعرف سبب كساده، وانتعاشه. في هذا الموقع الفريد لا يمكن لأي تجارة أن تبور، كان لديها فضولٌ جارف لمعرفة سبب هذا التغير.

دون سابق إنذار وجدت نفسها تدلف نحو المعرض، استقبلها «**أنور**» بائع المعرض بلباقة، ظنها فتاة باتت مقبلة على الزواج، تريد أن تستطلع الأسعار، وبأسلوبه الجميل كان يستدرج كل من يدخل المكان بكلمات ترحاب تشعره بأنه صاحب قدر، حتى وإن لم يكن له وزن، فما بالك بقيثارة المدينة التي تخطو فوق القلوب هي من جاءت، شعرت الفتاة بارتياح من كلمات الإطراء، وأيضًا كان جمالها عاملًا مشجعًا يدفع «**أنور**» دفعًا للحديث معها أكبر مدة ممكنة، رأت أن الفرصة سانحة لإشباع فضولها، فما إن ألقت سؤالًا إلا وجدت الإجابة تنطلق كالسيل على لسان «**أنور**»، فهمت أن صاحب هذا المعرض هو «**ناجي**» مرتكب الحادثة، وأن تلك الحادثة كانت هي السبب في كل المصائب، التي أصابته، أبلغها «**أنور**» بكل كبيرة وصغيرة منذ الإفلاس حتى عودة الحياة للمعرض.

هنا أدركت الموقف، وشعرت بأنها ربما كانت متعسفة، وبعد أن عرفت من «**أنور**» أنه ليس بمستهتر أو عربيد، وما زال رجلًا أعزبَ.

انصرفت ولديها شعور ببعض الندم، الحادث عفويٌّ، عرفت أنه عصامي حارب الدنيا لكي يصنع لنفسه موقعًا في عالم تقلصت فيه فرص النجاح بشرف.

عللت أن بعض ما حدث ربما من خفقان قلب «**ناجي**» نحوها، ودللت على ذلك بمحاولاته المستمرة في التقرب منها، كان هذا سبب الاتزان في الرد عليه عندما عرض عليها أن يوصلها، أدركت أن هناك شيئًا كبيرًا يحرك «**ناجي**» نحوها، إنه الحب الذي طالما حلمت به، فهيام رجل بها إلى هذا الحد يرضي غرورها، لأنها تعشق الرجل الذي يقاتل من أجل محبوبته. وها هو المقاتل الشرس يقف على أبوابها.

تأكدت أن هذا القتال ليس مجرد نزوة، شعرت بدقات قلبها تهز جسدها، سرت في أوصالها لذة مصحوبة بخفقان، شعرت بمتعة من نوع آخر، باتت ليلتها دون أن تنام، تتذكر عيون ناجي التي تصرخ بالشوق تناديها، كانت الأفكار والآلام والهواجس تعتصرها، لأول مرة تقع بين صراع أصبحت المشاعر فيه طرفًا في مواجهة إغراءات المال، ظهرت أمام عينيها فجأة صورة سامي وناجي في إطار واحد.

في اليوم التالي، بعد انتهاء مواعيد العمل في المحكمة، كان «**ناجي**» يقف في مكان متقدم بحيث تظهر صورة كل من يهبط من فوق سلم محكمة الجيزة، كان يتابع بقلبه قدوم «**ليلى**» وهي تهبط من فوق السلم وتسير إلى الأمام حتى اقتربت من السيارة، فوجئت ليلى بصوت يناديها:

- **ناجي: ليلى (التفتت إلى الخلف فوجدت ناجي الذي هبط في ثوان، وتحرك مسرعًا نحوها)**
- **ناجي:** ممكن تسمعيني **(نظرت ليلى إليه،مرت لحظة صمت)**
- **ليلي:** تفضل.
- **ناجي:** أوصلك، ونتكلم في السكة.
- **ليلي:** (**بدلال**) متشكرة، أنا لا أركب مع أحد.

انصرفت «**ليلى**» بعد أن تأكدت من صدق مشاعره، ولكنها لم تقبل أن تكون لقمة سائغة، تمرست على الدلال وهي تثق أن الفريسة سوف تحرص على أن تستقبل السهام بصدرها طواعية، تريد أن تسيطر عليه بالتمنع.

«**ناجي**» شعر ببعض الحرج، ولكنه كان مصممًا على اقتحامها، تراجع عدة خطوات ودخل سيارته وجلس بعضًا من الوقت لا يدري إن كان قصيرًا أم طويلًا، فجأة دون أن يدري قام بالتحرك بالسيارة دون هدف، أو جهة محددة، بعد عشر دقائق وجد نفسه أمام العمارة التي تقطن فيها محبوبته، أغلق مفتاح التشغيل وهبط من السيارة، وصعد إلى السلم حتى وصل الدور الثالث، لم يكن يعلم أين تقع شقة «**ليلى**» بالتحديد، وجد نفسه وقد استقرت في هذا الدور، أمامه ثلاث شقق، دون أن يدري ضغط جرس الشقة رقم ٨، كان مضطربًا، من صاحب هذه الشقة؟ وماذا سيقول؟

إذا خرج رجل أو فتاة أو حتى «**ليلى**» ما هو التصرف؟ كان لا يدري، وكأن هناك قوة تحركه بلا دخل منه، هواجس متداخلة ومغامرة غير محسوبة، العرق يتصبب من جبينه، يشعر بدوران وقلق وتوتر من المجهول، ينتظر كل شيء، ويتوقع موقفًا مؤلمًا لم يسبق أن تعرض له، أغمض عينه مع صوت فتح الباب، وبات لا يرى أي شيء.

فتح الباب، وهو هكذا مغمض العينين، طال الوقت قليلًا ولم يتكلم معه أحد، ولكنه شعر أنه أمام شخص في المقابل، ببطء بدأ ينظر فإذا بـ«**ليلى**» أمامه، واقفة في مواجهته لبضع دقائق في صمت رهيب، فلم يتوقع صدق حدسه، وهي لم تكن تنتظر تلك المفاجأة، كلٌ منهما عُقد لسانه عن الكلام، ربما كانت اللحظات طويلة ثقيلة فكل طرف لا يعلم كيف يتصرف، أصبح تحريك الشفاه أصعب من تحريك الهرم الأكبر، دون مقدمات

قال لها:

- **ناجي:** أحبك.
- **ليلى:** (مذهولة) نعم.

وأخرج بطاقة تعارف بها التليفون والعنوان وناولها إياها، وانصرف مسرعًا دون أن ينطق بحرف آخر، «**ليلى**» أخذتها منه، وظلت تحملق فيه دون أن تتحرك، ظلت هكذا لمدة غير معلومة من الوقت، دخلت وتركت باب الشقة مفتوحًا وفي يدها بطاقة التعارف، خرجت أمها من الداخل لتجد باب الشقة مفتوحًا، ف«**ليلى**» دخلت غرفتها غير آبهة بغلقه، ودون أن تتكلم الأم أسرعت وأغلقت الباب، وعادت إلى المطبخ حتى لا يحترق الطعام، ربما كان إنقاذ الطعام داخل المطبخ أهم من أي تساؤل لديها.

عادت «**ليلى**» إلى الغرفة واستلقت فوق سريرها تنظر إلى بطاقة التعارف تارة، وتارة أخرى إلى عربة صغيرة فوق المنضدة، كانت لعبة قديمة أخرى تحبها، كأنها تأمل بأن تتحول تلك العربة إلى سيارة حقيقية في يوم من الأيام.

راحت تمعن النظر في السيارة وهي مغمضة العين، تخيلت أنها سيارة حقيقية تركبها وتجوب بها الشوارع، كانت في آذانها جرس الضحكات التي تخيلت أنها تطلقها وهي تقود السيارة، وكان صوت الفرامل يعلو تدريجيًّا حتى توقفت السيارة وبجوارها «**سامي السلاموني**» وصديقتها «**رجاء**» تنظر إليها بانبهار وشغف، فجأة تعود إلى الواقع وتنظر إلى بطاقة التعارف التي في يديها.

كانت تنتابها قوتان متناقضتان قوة العاطفة تجذبها نحو «**ناجي**»، وقوة المال تجعل صورة الثراء مقترنة بـ«**سامي السلاموني**»، فرغم كل عيوبه كانت تتوق إلى المال، ورغم تشدقها بالأحلام الوردية والفارس المغوار المحب اكتشفت أنها تحب المال أيضًا،

فرغم عدم اقتناعها بـ«**سامي**» كشريك للحياة، ورغم إدراكها أن ما فشل في نيله بالتودد يسعى لنيله بطريقة أخرى، ربما كان عقلها الباطن يبرر قبول الزواج من «**سامي**»، فطالما ستحصل على شقة باسمها وسيارة وشبكة ومقتنيات تقرب من نصف مليون جنيه، حتى لو طلقت، ربما سوف تستطيع اقتناء رجل أفضل، بما تمتلك من مال وجمال.

حالة من التوتر والقلق والتردد، ودائمًا في نهاية تلك الهواجس ترى أن بطاقة التعارف التي أخذتها من «**ناجي**» أثقل، ولكن أموال ابن «**السلاموني**» تناديها بصوت صاخب وتلح عليها في القبول إلحاحًا، قضت ليلتها وهي حائرة، في اليوم التالي دون سابق إنذار ذهب «**ناجي**» إلى منزل «**مراد**» أبي «**ليلى**»، وقرر أن يضع العربة أمام الحصان وطلب يدها. كانت الأسرة كلها تميل إلى نسب «**السلاموني**» باستثناء الأب، الذي لم يكن متحمسًا لهذا النسب، إغراءات المال جعلته لا يفصح عن هذا الرأي، وعندما تقابل مع «**ناجي**» رغم الفارق المادي كان يشعر تجاهه بارتياح شديد لا يعرف مصدره.

لم يعرض «**ناجي**» مهرًا أو شبكة ذات قيمة، لمح الأب أن «**ليلى**» دخلت بالشاي تقدمه لـ«**ناجي**» دون أن تتكلم، في حين رفضت أن تفعل ذلك لابن «**السلاموني**»، أدرك الأب أن مشاعر ابنته تميل نحو «**ناجي**»، فضل ألا يفصح عن رأيه وترك الأمر معلقًا.

هناك عريسان ينتظران الرد، و«**ليلى**» لا تكاد تحسم أمرها، والأسرة في حيرة، والموقف كله غير واضح، وأم «**ناجي**» تتمنى فشل مشروع هذا الزواج، حتى يعود ولدها لـ«**فواكه**»، وتوقعت ذلك عندما علمت بشدة المنافسة، ومازال الأمر معلقًا وكل الاحتمالات مفتوحة.

١١- المأزق

يستعصي النوم على «**ليلى**»،فلم تنم ليلتها، ومازالت تعاني من صراع داخلي أقوى منها، ماذا تفعل؟، ربما تكون الصورة واضحة لأي عاقل خارج حلبة الصراع، أما المغموسون في المشكلة يتخبطون كأن الجن قد أصابهم بمَسّ، الفتاة تتمزق بين شطريها، القلب يسموبالروح في وادي، والعقل توقف عن التفكير، ولايسمع سوى رنين الذهب والفضة، أخيرًا استجمعت قواها وأدركت أن الذهاب إلى العمل ربما يمنحها فرصة أخرى لحسم أمرها، في اليوم التالي لم يكن أحد سواها بالمكتب، و«**سمير طايع**» داخل مكتبه عيناه تلمعان، يفرك أصابعه في ترقب، ضغط على الجرس، فدلفت ليلى نحوه:

- **ليلى**: أمرك .
- **سمير**: أريد التكلم معكِ.
- **ليلى**: في أي شيء.
- **سمير**: اجلسي أولاً.

زادت نظراته الفتاة توجسًا، وأدركت بذكائها أن هناك شيئًا ما، كانت كلمات «**سمير**» نحوها ملتهبة، ولهجته مريبة، تقف أمام مكتبه لا تجلس تترقب ما يريد قوله، ينهض نحوها، ويقف أمامها فاقدًا للصبر، استجمع قواه ليضمها نحو صدره، مال عليها ليقبلها، حاولت دفعه فوجدت نفسها كمن يزيح الجبل الذي أطبق على الوادي، ذهبت المقاومة دون جدوى، راح يقلبها بعنف، كانت رائحة النتن الكريهة بفمه كأنها تنبعث من حظيرة خنايز.

شعرت الفتاة بغثيان وهي تقاومه، لم تتوقع هذا الهجوم المباغت، إنه حيوان في صورة بشر، حاولت أن تكلمه بالعقل دون جدوى، ذكرته بالشرف واستحلفته بالأخلاق لم يستجب،

ومن أين لمثل هذا الذئب أن يدرك معنى القيم، وهو يعتمد في مهنته على انتهاكها، بذلت مجهودًا هائلًا في المقاومة، وكاد أن يتغلب عليها، وأوشك على الفتك بها عندما فك أزرار بنطلونها من الأمام، يدفعان بعضهما البعض، تارة يسقطون فوق الأرض، فتنهض من تحته، وتارة يهوي بها على الحائط، فتنزلق منه، وظلت هذه المنازلة لبعض من الوقت، وفي لحظة تبددت فيها عزيمة الفتاة، وخارت قواها، استجمعت من الوهن عزمها كحصان جامح في ساحة الوغى، وبكل عنادها، وغيظها، دفعته بشدة كمن يدفع الموت عن عمره مخافة الفناء، فإذ به يتقهقر للخلف فتصطدم مؤخرة رأسه بحرف المكتب المدبب، فيسقط غارقًا في الدماء، تمدد على الأرض والدماء تسيل منه كحيوان مذبوح قطع منه الوتين، تتراجع «**ليلى**» لا تعرف كيف تتصرف، ماذا تفعل؟ هل تتركه يفارق الحياة؟ هل تطلب له سيارة الإسعاف؟ وكيف تنقذ من حاول الفتك بأعز ما تملك.

اسودت الدنيا في وجهها أشد ما يكون الظلام، الفضيحة سوف تجعل أسرتها تمنعها من الاستمرار في العمل، دارت في رأسها أفكار عديدة، تخيلت نفسها داخل سرايا النيابة متهمة بقتله، أصبحت في حالة يرثى لها، ماذا تفعل؟ لم تجد بدًّا من مغادرة المكان والعودة إلى البيت مذعورة.

قطعت الطريق إلى المنزل دون أن تدري كم مر من الوقت، مرت من جوار «**ناجي**» شاردة دون أن تراه، حاول أن يتلفظ ببعض الكلمات لم تسمعه، اعتقد أنها لا تعطي له أي اهتمام، كانت غائبة عن الوعي تمامًا، الأفكار السوداء تلتهم رأسها الصغير وعقلها العنيد كسر من هول الموقف. تحول الوجه المشرق إلى وجه عابس، دخلت الشقة، لم تلق السلام على أمها، انطلقت نحو غرفتها وأغلقت خلفها الباب، أثارت عودتها المبكرة فضولًا لدى الأم، فهي لا تعود إلى المنزل، إلا بعد الثامنة مساء، واليوم عادت الساعة الثانية ظهرًا.

حلم المال والشهرة يتبدد، لم تكن أحلام الفتاة الطائشة مثل أحلام البنات تقليدية، حتى في شريك عمرها، كانت لها مواصفات خاصة تلك الأحلام يبدو أنها ستنتهي إلى الأبد، إنها تنتظر أن تلاحقها الشرطة، ربما الآن أو بعد ساعات، فجأة سمعت طرقًا متواصلًا على الباب، وصوت الجرس لا يتوقف، شعرت بقدوم الشرطة للقبض عليها بتهمة قتل «**سمير طايع**»، اتجهت نحو باب الغرفة تغلقه بالمزلاج، تنتابها أفكار عديدة، ورعشات متتالية تفقدها التوازن، فجأة انتقل الطرق إلى باب غرفتها بكثافة دون توقف مع صوت أختها ريهام تناديها.

- **ريهام:** افتحي الباب.
- **ليلى:** فيه إيه؟
- **ريهام:** كارثة.

(ليلى تزداد توترًا والقلق يعصف بها، تكلم نفسها بصوت مكتوم):

- **هي الشرطة.**

(تفتح ليلى الباب يكسوها الخوف، ريهام تجدها ترتعد تمسك يدها، وتجذبها للخارج)

- **ريهام:** لازم تخرجي حالًا وبسرعة أرجوكِ، مفيش وقت يا «ليلى» **(ليلى دون مقاومة تستسلم لها، وتخرج معها وتجتاز الصالة مسرعة، الأم لا تدري ماذا يحدث، تسأل دون أن يجيب أحد)**
- **الأم:** فيه إيه؟ لا أفهم شيئًا؟.

دون اكتراث تجتاز الفتاتان الشقة إلى خارجها، الجو أصبح غامضًا بالنسبة للأم، وماذا حدث وإلى أين ذهبتا؟ بقلبها بدأت تشعر أن هناك شيئًا ما، لا تعرف كيف تصل إلى الحقيقة، أسئلة كثيرة دارت في ذهنها دون إجابة.

هبطت «**ليلى**» و «**ريهام**» إلى أسفل العمارة، فوجدتا شكري يقف بسيارة أجرة في انتظارهما، زاد ذهول « **ليلى**» لوجود أخيها، من جاء به؟ وكيف علم بالأمر بهذه السرعة؟ أنه على وشك السفر، ومن أبلغ «**ريهام**» أيضًا؟.

صمتها المريب المشوب بالقلق، يمنعها من توجيه الأسئلة لأحد، ويمنع الجميع من الحديث، كانوا في وجوم تام، ركبت «**ليلى**» السيارة بجوار «**ريهام**» بينما «**شكري**» ركب بجوار السائق، وانطلقت السيارة كأنها ذاهبة إلى المجهول، خيال «**ليلى**» توقف، لم تعد ترى أو تسمع أي حوار بجوارها.

١٢- ثمار الخريف

بدأت «**تفيدة هانم**» تستشعر تحول «**ناجي**»، فلم يعد متحمسًا للزواج من ابنتها «**فواكه**»، أصابتها كآبة عندما تحققت من أختها «**شكرية**»، أن شيطان الحب العتيد قد أطاح بلب الفتى، كظمت غيظها وباتت حزينة تفكر؛ كيف تتم معالجة آثار ما بعد الصدمة؟ أنها تدرك حتمية التواصل العاطفي في الزواج، وتؤمن بجلال الحب قدر إيمانها بالحياة، فتجربتها مع زوجها الراحل «**علوي باشا**» خير شاهد، تحرك شريط الذكريات أمام عينيها، لم تنس كيف تعرف عليها بالماضي قرب المساء، عندما كانت أمها المريضة في غرفة الاستقبال في مستشفى خاص بحي «**المهندسين**» بالقاهرة، ورفض الموظف المختص دخولها قبل دفع مبلغ تحت الحساب، رسم الموقف الحزن على وجهها بريشة الفقر البغيض، ورغم حرقة الألم، كانت كحورية هبطت من السماء فوق الأرض، وجهها أبيض ممزوجٌ بالحمرة، وعيناها الواسعتان الزرقاوتان الشفافتان تتحركان كأنهما تبعثران السحر في أرجاء المكان، وجسدها المتناغمٌ يتمايل كأنه غصن يداعبه النسيم، يتدلى شعرها الحالك السواد حتى خصريها، كأنها سلاسل غزلت من الليل البهيم، أمها تصرخ من الألم، والقلوب تستصرخها الوداد، فتنحني لها الهامات إجلالاً لهذا الجمال.

قذف القدر بها فسقط في حجر تاجر الجمال، ها هو «**علوي باشا**» الذي كان يجلس بالقرب من غرفة الاستقبال؛ لزيارة أحد أصدقائه المرضى، وعندما وقعت عينه عليها، أخذ يفرك شاربه المفتول المقوس إلى أعلى ويقضم شفتيه بنهم الظمآن، بلع ريقه فأبى الماء أن يبلل حلقه، تقدم نحوها بضع خطوات وأخرج شيكًا بثلاثة آلاف جنيه، وقدمه لموظف الاستقبال تحت الحساب، آنذاك شعرت «**تفيدة**» بأن الحياة دبت في أوصالها، هذا الرجل أنقذ أمها، تبًا للمستشفيات الحكومية لا تقدم العلاج

المناسب للمرضى، وما فعله «**علوي باشا**» مد طوق النجاة لأمها.

بمشاعر الامتنان شكرته، استقبل الصياد هذا الشكر بالترفع المصطنع، واعدًا إياها بدعم أمها حتى الشفاء، وهي أيضًا وعدته بسداد المبلغ، وعلى الفور تم نقل الأم إلى غرفة العمليات لإجراء جراحة بالقلب، «**علوي باشا**» قناصٌ ماهرٌ، ويعشق النساء كأنه مراهق، وخاصة بعد وفاة زوجته «**ثريا**»، كانت ابنة عمه وتزوجها حفاظًا على أرض العائلة حتى لا تتفتت، كانت دميمة الشكل مثله، ممتلئة كأنها برميل تبرز منه رأس مدببة، وكان فمها واسع كإناء مفرطح، وأنفها دائرية كفوهة المدفع، كان يشعر أنها ليست بامرأة، جاءت وفاتها عندما سقطت من فوق سلم الفيلا فجأة كهدية من القدر، غادرت الحياة بعد أن تنازلت له عن كل ثروتها، فشعر بالحزن عليها من باب صلة الرحم فقط، ولكن الارتياح بالخلاص منها أثلج صدره، فانطلق بماله يفتش عن أنثى تسقيه الحنان المفقود، فقد ضاع نصف عمره محبوسًا في بئر الحرمان، كثيرًا ما كان يحاول التقرب من الفتيات اللاتي تصغره في السن، والآن وجد ضالته في «**تفيدة**»، تلك الفتاة الملائكية، كان الفارق بينهما ٢٥ عامًا، ولكن في عالم طغت فيه المادة؛ يمكن شراء أعمار كل الموجعين بالفقر.

ظنت المسكينة أن السماء أمطرتها بالذهب، ولم تدرك أن «**علوي باشا**» إنما يصطاد عمرها، لم يفعل ذلك من قبيل الشهامة، ونبل المشاعر الإنسانية، كانت في مقتبل العمر وخبرتها في الحياة محدودة، وعادةً لا تدرك الفريسة الفخ إلا بعد الوقوع فيه. ومع تدهور الحالة المرضية للأم، بدأ علوي يقدم المزيد من الدعم المادي، وعينه على «**تفيدة**» كمقابل سخي لما يدفعه من مال، جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، وفارقت الأم الحياة، بعد أن تراكمت الديون على أسرتها بصورة يصعب معها السداد.

كانت «**تفيدة**» هي رد الجميل، فقد ألح «**علوي**» في طلبها

مقدمًا إغراءات مادية كبيرة، ولم تجد العائلة سواها لسداد هذا الدين الثقيل، وتم الزواج، و أنه كان كريمًا معها، لم تشعر تجاهه بأية مشاعر، كان يعاملها باشتهاء كأنها خلقت للرغبة فقط، لم يكن هناك أي نوع من التفاهم أو التواصل، أمضت الوردة ربيع عمرها بين وخز أشواك الخريف، سلواها أنها خففت عن أمها بعضًا من الأوجاع، مرت الأيام دون أن تشعر، واعتبرت «**تفيدة**» أن «**فواكه**» أفضل ثمرة سقطت في ثنايا عمرها جرّاء هذه الزيجة.

«**تفيدة هانم**» الأرملة رغم وصولها إلى منتصف العقد الخامس؛ ما زالت جميلة، وبقايا روحها تنتظر فارس أحلام جديد، تعيش بجواره الحب الذي حرمت منه، وضعت الأقدار أمامها «**عبود بيه**» ذلك الأرمل المتزن، الذي يكبرها بعدة أعوام، كان ذا هيبة، وفارع الطول، أبيض الوجه، عيونه زرقاء، وشعره غزيز، تتخلله خصلات بيضاء، وقد أتم الخمسين من عمره، رجل صناعة من الطراز النادر، وصاحب أكبر شركة لتصنيع الأجهزة الإلكترونية والمنزلية.

في الوقت الذي كان «**السلاموني**» هو وأقرانه يسرقون ويعربدون، كان «**عبود بيه**» يحاول بناء الصناعة، ويدعم نشاطه من إيرادات ورثها عن والده، كان يمتلك عدة فنادق سياحية، وعمارات في مدينة نصر، وأراض زراعية، لم تأممها الثورة عام ١٩٥٢، لولا ذلك ما صمد في النشاط الصناعي.

تعرف على «**تفيدة**» هانم ذات مساء، عندما كانت تقيم في فندقه بالساحل الشمالي في مدينة «**مطروح**» كان ذلك منذ عامين، نشأت بينهما علاقة حب قوية، وكان موعد تلاقي الحبيبين بعد زواج «**فواكه**» بـ«**ناجي**». الآن المشكلة تعقدت، هل من الممكن أن يتم ذلك في هذا الظرف الحرج ؟ فبوادر الصدمة مرتقبة، و«**فواكه**» ستعاني من آلام الفراق.

لم يكن «**ناجي**» يعلم أن «**عبود باشا**» ذلك الرجل الذي قضى على أحلامه في الثراء بحرمانه من الحصول على توكيل الأجهزة المنزلية لشركته عقب حادثة صدم «**رجاء**» سوف يتلقى منه ضربة مماثلة، ربما تطيح أو تؤجل بزواجه من «**تفيدة**» خالته، فهو زوجها المنتظر، التي لو علمت بموقفه وتشدده في منح «**ناجي**» توكيلًا من الشركة، لحلت تلك المشكلة بتليفون صغير، الخيوط متداخلة، حتى بعد زواجه من «**ليلى**» سوف تدعمه لن تتخلى عنه، ولكن خجله من نفسه لو علم ذلك، سيمنعه من طلب العون.

تأزم «**عبود بيه**» عندما علم من تفيدة بفشل زواج «**فواكه**» المرتقب، الحدث سوف يؤثر على أحلامه بالسلب، وسيجرح فتاة بريئة لا ذنب لها، **كان** «**عبود بيه**» يعلم أن ابنه «**حسام**» لن يمانع في زواجه الثاني، وخاصة أنه كثيرًا ما عرض عليه ذلك، ولكنه كان يؤجل الأمر، فبعد وفاة زوجته، كان إنقاذ المصانع من التوقف هو كل ما يشغله، كان يرى أن ذلك واجب ومسئولية أخلاقية تجاه العمالة.

كان يحب عماله كأنهم أبناؤه، ويشاركهم في كل صغيرة وكبيرة حول موقف المصنع، وكانوا يعلمون ما يبذله من أجلهم، فتوقف النشاط وبيع المعدات والأراضي كفيل بتحقيق أرباح طائلة، لو استثمرها «**عبود بيه**» في المجالات العقارية والخدمية، ولكنه كان صاحب رسالة، يتلقى الضربات من كل حدب وصوب صامدًا.

اليوم بعد أن أفنى الرجل عمره في العمل المثمر، يريد أن يرتاح ويلقى رأسه على صدر حنون، وقلب يفيض بكل معاني الإنسانية، هذا القلب وجده عند «**تفيدة**»، وهي أيضًا كانت تحتاج إليه بنفس القدر وربما أكثر. كانت «**شكرية**» أختها تدرك ذلك، وتلوم «**ناجي**» تارة، وتارة أخرى تعترف لنفسها بحقه في الاختيار، وتارة ثالثة تخجل من مواجهة الاثنين، فهي لا تستطيع

أن ترضي طرفًا على حساب الآخر، ولا تستطيع أن تتحمل أوجاع أي منهما، هذا هو القدر الذي لا تستطيع الفكاك منه.

ولم يستطع «**ناجي**» أن يغير موقف «**عبود بيه**» منه، كان يتصل بـ«**لبيب**» مدير مكتبه، المتعاطف معه، واتفق معه على خطة، وهي أن يأتي للشركة كأنه جاء قدرًا، وأثناء خروج «**عبود باشا**» يقتحم موكبه، فلم يكن أحد يجرؤ على التوسط لأي عميل، وأيضًا كان «**لبيب**» قد علم أن «**عبود بيه**» قد قرر إغلاق باب التعامل مع «**ناجي**»، ورأى أن عذره أقبح من ذنبه، فمن لا يحافظ على قواعد القيادة في الشارع، يكون مستهترًا في عمله، وقد ألغى توكيل «فريد» لنفس السبب.

يرى «**ناجي**» أن التعامل مع «**عبود بيه**» سيساعده على الانتشار في السوق، وسوف يحقق له الأرباح التي تمكنه من تلبية مطالب «**ليلى**»، في ذات اليوم الذي قرر الذهاب إليه، كانت «**تفيدة هانم**» خالته عند حبيبها «**عبود بيه**» بالمكتب، وأثناء خروجه معها ظهر «**ناجي**»، تفاجأت به، وقفزت للسلام عليه وهي مرتبكة، لم يكن لديها تفسير لتواجده، وهو أيضًا فوجئ بوجودها مع «**عبود بيه**».

علم «**عبود بيه**» أن ناجي ابن أختها، فمنحه التوكيل، لم يمر الموقف مرور الكرام على «**ناجي**»، أدرك أن هناك علاقة ما تجمع خالته «**بعبود بيه**»، وعندما عاد للمنزل وقص على أمه الأمر، أخبرته بأنهما في حكم المخطوبين، وأن عدم زواجه من «**فواكه**» عرقل مشروع إتمام زواج خالته منه.

شعر ناجي بحرج أكبر فما زالت مواقف خالته تطوق عنقه، هي تحل مشاكله، وهو يعقد كل حياتها، ولكن تبقى مشكلته في الصراع من أجل قلب ليلى هي الهم الأكبر، وكل ما يشغله فمازال ينتظر الرد.

١٣- الخلاص

قرب الرابعة عصرًا هبط «**شكري**» بمد الخطى، يتقدم «**ليلى**» و«**ريهام**» نحو غرفة رقم ١٣ بمستشفى المنيل الجامعي يخفق قلب «**ليلى**» بقوة، تكلم نفسها:

- «**سمير طايع**» ربما هنا، هل فارق الحياة؟ هذه هي غرفة العناية المركزة.

يدخل «**شكري**» و«**ريهام**» الغرفة و«**ليلى**» تنظر إليهما بتعجب! كيف علموا بالأمر؟ هل الشرطة استدعتهما؟ كيف عرفوا ما حدث؟، فجأة يخرج «**شكري**» ينادي عليها، فتدخل في ترقب، عيناها تقعان على السرير، من يرقد هناك؟، إنه أبوها «**مراد**» دمعت عيناها، لقد تعرض لنزيف حاد ويحتاج إلى نقل دم فورًا وفصيلة دمه نادرة (O) وهي نفس فصيلة دم «**ليلى**» على الفور صعدت على السرير المجاور، وبدأت عملية نقل الدم من فورها.

كان أبوها «**مراد**» عائدًا من مأمورية تفتيش على إحدى المدارس بمنطقة المنيل بالقاهرة، وفي الضحي ضربته سيارة بشارع «**المنيل**» بالقاهرة قرب ميدان «**المماليك**» تعرض على إثرها لنزيف حاد، وتأخرت سيارة الإسعاف، وجاءت بعد أن نزف دمًا كثيرًا، وقام الأطباء بجهود كبيرة لإيقاف النزيف.

أبوها «**مراد**» يؤدي عمله بإتقان، وكما ينبغي أن يكون، ويضع على عاتقه مهمة تجويد العملية التعليمية، يمر على أكثر من مدرسة في اليوم الواحد، ويتصدى للقصور بصرامة، سمعته داخل حقل التعليم ملء الأسماع والأبصار، لا يعرف التهاون مع المقصرين، دائمًا يضع مصلحة الطلاب نصب عينيه، لا يتردد في إنزال أقصى العقاب على المستهترين في هذا المجال، هو اليوم طريح الفراش نتيجة لهذا الحادث الأليم.

تنظر «**ليلى**» إلى أبيها والدموع تسيل على خديها، هي تذوب

فيه حبًا رغم تعنيفه الدائم لها، لم يكن راضيًا عن طريقتها في ارتداء الملابس، ولكنه مترفقٌ بها أحيانًا، وصارمٌ أحيانًا أخرى، تذكرت مواقف أبيها الحازمة والاعتراض على ملابسها، فكم مرة قام بتمزيق البلوزة لأنها شفافة، و«**ليلى**» لم تكن تستسلم، صفة العناد لديها تجعلها تعاود شراء نفس النوعية من الزي، شغوفة بإثارة اهتمام كل من حولها، كان والدها ينتقدها بشدة، لم يكن راضيًا عن تمردها، رغم ذلك كانت تشعر بحنانه عليها.

تنظر إليه وهو شبه غائب عن الوعي، ثم تعاود النظر إلى «**شكري**» الذي يقف بجوارها في قلق، الأفكار تملأ رأسها الصغير، قاربت عملية نقل الدم على الانتهاء، فجأة تذكرت «**سمير طايع**» رغم أنها كانت المجني عليها، بيد الأفكار تطاردها، تتساءل بينها وبين نفسها:

- ترى هل تم إنقاذ «**سمير طايع**» أم فارق الحياة؟.

تنتهي عملية نقل الدم، وتسحب الممرضة سن «**الحقنة**» من يدها، وهي شاردة الذهن، يتقدم «**شكري**» نحوها يهزها تلتفت إليه، وتنهض معه إلى خارج الغرفة، وقرب المغرب، فجأة تجد «**ممدوح**» أمامها، ماذا أتى به إلى هنا؟، هل سأل عنها وعرف أنها في المستشفى اقتربت منه ببطء فإذا به يواسيها.

- **ممدوح**: الحمد لله جاءت سليمة.
- **ليلى**: لسه متبرعة بالدم حالًا.
- **ممدوح**: دم إيه؟ الأستاذ «**سمير**» عمل خمس غرز وخرج زي الفل.

تداركت الموقف بسرعة وذكاء، تتنفست الصعداء فمازال الوغد حيًا، أطلت على وجهها علامات الارتياح، وخاصة عندما أبلغها «**ممدوح**» أن «**الأستاذ**» أخبره أنه سقط من التعب على حافة المكتب، هزت رأسها، تكلم نفسها:

- لم يجد شيئًا يقوله سوى ذلك.

أما «**ممدوح**» ما يزال يعتقد أن «**ليلى**» جاءت للاطمئنان عليه، وانصرف وهو على نفس الاعتقاد، نظر «**شكري**» إلى «**ليلى**» كأنه يسأل عن «**ممدوح**» أخبرته أنه زميلها في العمل.

يعود ثلاثتهم إلى المنزل، وتعلم الأم بالحادث، وتقرر الذهاب لتكون بجوار زوجها، بعد أسبوع خرج الأب من المستشفى، ولم يعد هناك مبرر لوجود «**ليلى**» في البيت بعد خروجه من المستشفى، وإصراره على الذهاب إلى العمل على الرغم من أن ذراعه بالجبس وأجازته المرضية لم تنته، هذا جعل حجتها في التواجد داخل المنزل باطلة، ولاسيما أن «**مراد**» لو علم بما حدث لن يوافق مرة أخرى على عملها.

قررت «**ليلى**» عدم إخبار الأسرة بإنقطاعها عن العمل، سيطر عليها شعور داخلي بالتحدي، فلم يكن إحساسها بالجمال إلا وسيلة للسيطرة على الرجال، وكانت تملك مهارة فائقة في السيطرة على من يتعاملون معها. تمرست منذ فترة الثانوية والجامعة على هذا الأسلوب، كانت تستخدم كلمات مزدوجة المعنى قد تعطي من تحاوره الإيحاء بالأهمية، وهو بالنسبة لها لا يمثل شيئًا يذكر.

في صباح اليوم التالي خرجت دون أن تدري أين تذهب، قررت البحث عن عمل في مكتب جديد بالمكاتب الكبرى فقط بالقاهرة، والجيزة، كانت تخرج أول اليوم وتعود في الثامنة مساء لبضع أيام، أدمى البحث قدميها لدرجة أنها تورمت، كانت تشعر أن بعض أصحاب المكاتب يريدونها كأنثى فتفر منهم، كما يفر الأمل من الموت.

بعد عناء قررت أن تقصد أشهر مكتب للمحاماة في القاهرة، إنه مكتب «**فرج همام**» الكائن بشارع عدلي، كان من أكبر المحامين في مصر، كان المحامي الكبير رجلاً تجاوز الخامسة

والخمسين من عمره، ومحترف في مجال المحاماة، ولم تكن فرص الالتحاق بالعمل عنده سهلة.

دخلت مكتبه قرب الثالثة عصرًا، وطلبت مقابلته من السكرتيرة على أنها صاحبة شركة، كان مظهرها وطريقة لبسها يوحي أنها أميرة، اقترب منها الساعي ليقدم لها الشاي طامعًا في بقشيش كبير، فقد تعود على السخاء وخاصة من سيدات الأعمال، انتظرت لبعض من الوقت، ثم دخلت عليه، فنهض ورحب بها ترحيبًا شديدًا، وانحنى أمامها مبالغًا في التقدير جلست، ولكنه قبل أن يتكلم سألها ماذا تريد أن تشرب؟.

أخبرته أنها شربت، فأقسم عليها أن تشرب مرة أخرى، ضغط على الجرس ودخل الساعي فطلب منه أن يأتي بمشروب مثلج للهانم، خرج الساعي وهو في قمة السعادة، الهانم سوف تشرب للمرة الثانية، لابد أن البقشيش سيكون كبيرًا، تلك الأمنية بدأت تكبر في خياله، انصرف وأغلق الباب.

بدأت بعدها «**ليلى**» الحديث بالثناء على خبرة وسمعة «**فرج همام**» الطيبة في مجال المهنة، هذا الكلام سبب نشوة له، وشعر بارتياح شديد جراء هذا المديح، ولكنه فوجئ أنها تطلب عملاً، وأنها محامية عملت سنة في مكتب «**سمير طايع**» ظهرت الدهشة والذهول على وجهه، وجد نفسه في موقف حرج، صمت قليلاً ولم ينطق بكلمة واحدة، بدأ التوتر يظهر على وجه «**ليلى**» بدأت تنظر إلي عقارب الساعة الكبيرة المعلقة فوق الجدار من أمامها، وجدتها تتحرك ببطء، وهو صامت، لم يَثُرْ أو يتكلم.

فجأة دخل الساعي بالليمون البارد وسط حرارة اللقاء، وضع كوبًا أمام «**فرج همام**» وآخر أمام «**ليلى**» هي تنظر إلى الساعي ثم إلى «**فرج همام**» مرتبكة. ينصرف الساعي، ولحظات قليلة من الصمت، أشار إليها أن تشرب الليمون وضعت الكوب وارتشفت بعضًا منه ووضعته أمامها:

- **ليلى**: قولت إيه يا أفندم؟

- **فرج**: أشربي الليمون.

مدت يدها بتوتر وشربت الكوب مرة واحدة حتى ينتهي الموقف، وتسمع رده، فلم تكن مستعدة أن تجلس وسط هذا الصمت الرهيب، ضغط على الجرس، دخل مدير المكتب «**وليد دعبس**»، ذلك الرجل الأربعيني ذو الوجه العابس والهيئة الجامدة، قليل الكلام، نظر إليه «**فرج همام**» ثم إلى «**ليلى**»أمره أن يأخذ المحامية الجديدة ليسلمها العمل.

نهضت «**ليلى**» معه دون أن تنبث ببنت شفة، «**وليد**» هو الآخر لم يتكلم معها كأنه لا يراها، لأول مرة تشعر أنها ليست أنثى، فقدت قوة تأثيرها الخارقة أمام «**وليد دعبس**» يكلمها كأنها حشرة ضئيلة، شعرت بالغيظ، لم تتعود على هذا التجاهل التام، شعرت بانقباض تجاه هذا الرجل الخشبي، هو قليل الكلام نظرته تدل على عدم الاكتراث بها، وضع أمامها سجلًا كبيرًا ،وطلب منها أن تراجع ملفات القضايا وتحدد جدولها ومواعيدها. أخذت منه السجل مقبوضة تود الفرار من المكان، هذا الرجل لا يطاق، لا ينطق أو يدلل الناس، هذا الجو الثقيل لم تعتد أن تراه من قبل، شكت في نفسها، فتحت شنطتها خلسة ونظرت في المرآة، فتبسمت لنفسها عندما شاهدت صورة البدر تكاد تضيئ الدنيا، أغلقتها متسائلة! كيف استطاع هذا الصنم مقاومة هذا الجمال؟

كان «**وليد دعبس**» متمرسًا في عمله، ولا يعرف سوى القضايا، والثغرات القانونية، كأنه آلة بشرية تجيد الأعمال التنفيذية، لم يكن طموحًا، ولم يفكر في أن يستقل بفتح مكتب خاص به، «**فرج همام**» يثق به، ويعلم أنه عنصر هام داخل المكتب، فكان لا يبخل عليه بمال، لم يكن مجرد موظف بل كان يتقاضى أجره كشريك بالعمل، وحدد له نسبة من الأرباح ٣٠ % على دفعات شهرية، وكانت هذه النسبة كبيرة،هي ضعف أجور كل من بالمكتب. «**وليد**» على خبرة تامة بخبايا

المهنة، ربما بصورة أكبر من «**فرج همام**» نفسه، ولكن عدم حبه للمغامرة حرمه من أن يكون المحامي الأول في مصر، هو تقليدي إلى أبعد ما يكون، وحياته نمطية.

كانت «**ليلى**» ترى أن هذا الرجل من الصعب اقتحام أغواره، أخذت الملفات وقررت أن تتحدى ذلك العملاق، اكتسبت خبرة في العام الماضي لا يستهان بها، وظلت عاكفة على الملفات حتى خرج كل الموظفين من المكتب، استمرت في العمل حتى جاءت الساعة الثامنة مساء، عندها كانت قد أنجزت كل ما أمامها من عمل، هذا السجل كان يستغرق أسبوعًا من أي موظف بالمكتب، انصرفت.. وفي اليوم التالي جلست وقامت بإعداد كشف تفصيلي، وكتبت مذكرة لبعض القضايا ودخلت بها إلى «**فرج همام**» ووضعته أمامه، لم يصدق أنها أنجزت هذا العمل بتلك السرعة.

أما «**وليد دعبس**» فقد أثنى عليها بجملة واحدة فقط:

- جيد

كان قليل الكلام ولم يسبق أن أثنى على موظف، وصرف لها مكافأة وبدأ في التعاون معها. ما يلفت اهتمام «**وليد دعبس**» إلى أي شخص هو تميزه في العمل، أدرك أنها موهوبة بدأ يعلمها بجدية لم ينظر إليها نظرة مخلة، شعرت «**ليلى**» أنها أمام جبل كبير، ومع الأيام تغير موقفها منه، لم تشعر بتقدير لأحد، مثل ما قدرت هذا الرجل، فتح أمامها كنز معلوماته دون أن يساوم، أدركت أن «**فرج همام**» نجح بفضله، تبدلت نظرتها إليه على عكس الانطباع الأول، كل يوم يمر كانت تحترمه أكثر، هو لم يعاملها إلا في حدود العمل فقط، كان حاسمًا وقاطعًا، يفيض بمعلوماته لكل من في المكتب، لم يبخل بمعلومة واحدة على أحد، هكذا مرت أزمة «**ليلى**» مع «**سمير طايع**» بسلام دون أن يعرف أحد، ومازال أمر زواجها معلقًا، وكل من «**سامي السلاموني**» و«**ناجي**» ينتظران الرد.

١٤- الاختيار

شعرت «**ليلى**» بارتياح بعدما استقرت في عملها الجديد، وبدأ حبها لـ«**ناجي**» يسيطر على كيانها، ولكنها تتعمد إظهار عدم المبالاة؛ لأن لهفة الفتى عليها تزيد من متعتها، ما زال العريسان ينتظران الرد الذي طال انتظاره، بينما «**ناجي**» غارقٌ في حبه وغرامه، كان «**سامي السلاموني**» يعبث مع النساء وخاصة «**ميّ**».

كنوع من التودد قرر «**ناجي**» دعوة «**ليلى**» على العشاء في مطعم «**النيل**» الفاخر الكائن بحي «**الزمالك**» شارع حسن صبري، وقبلت ذلك، ولكنها لم تقل كلمة تريح قلبه الملهوف لهفة الموجوع بالحب، وذهبا ليتناولا العشاء، وهما جالسان حدثت المفاجأة، دخل «**سامي**» بصحبة «**ميّ**»، كانت «**ليلى**» تعرفها من خلال قضية آداب محررة ضدها، لمحتهما يجلسان، كانت تلك الفتاة الفقيرة، جميلة الشكل، مشوهة الفكر، مقسومة علي نفسها، نصفها للتجارة، والنصف الآخر للضياع، جمالها كالعسل الذي سقطت فيه أسراب الذباب؛ فأصبح فاسدًا، لا تقبل عليه إلا الحشرات، وتعف عنه أنفس الأحرار، وإن كانت البطالة قد دفعتها للرذيلة من أجل لقمة العيش، بيد أن هذا المنطق لا يبرر هذا السقوط.

بعد مشاهدة الآثمين معًا قررت «**ليلى**» حسم الأمر المعلق، وتأكدت أنها إذا وافقت على «**سامي**» ستكون جارية كما توقعت. بدأت تتكلم مع «**ناجي**» بصورة أكثر رقة، وبتجاوب أكثر، فجأة، وبعد حين، وقعت عين «**سامي**» عليها، توقف عن تناول الطعام، استشاط غضبًا وتحرك متغطرسًا نحوها، ليسألها بفظاظة من هذا؟. تماسكت «**ليلى**» وردت بثقة:

- **ليلى**: هذا ناجي خطيبي.

- **سامي**: وأنا.
- **ليلى**: ما تنفعش.

خرج «**سامي**» من المطعم شبه منهار، فلم يستطع تحمل نظرات «**ناجي**» الحادة وتبعته «**ميّ**» كظله الباهت.

كان هذا الموقف نهاية غطرسة «**ليلى**» وتمنعها، أصبحت كالعصفورة تغرد بكلمات الحب والعشق، مضت فترة طويلة، والعشيقان يحلقان في أجواء الغرام، كانت الحياة في أجمل صورة، النجاح في العمل حليف «**ليلى**»، ومعرض «**ناجي**» في ازدهار، والأمور تحسنت بصورة أكبر.

.الصفعة كانت قوية فرفض «**ليلي**» لـ«**سامي**» أربك وأغضب «**راوية**» هانم، وعلى النقيض أراحت «**السلاموني**» أشد ماتكون الراحة، فمشروع زواج ابنه من كريمة أحد كبار الأثرياء سوف يتم بنجاح، في تلك الفترة كان «**السلاموني**» يخوض انتخابات مجلس الشعب وضم إلى فريق دعايته «**حسين**» بائع السميط وبعض بلطجية من منطقة «**الدويقة**». كان «**حسين**» شابًا يجمع بين الفهلوة، والبلطجة، والقلب الميت، ويسعى لجمع المال بأي طريقة، مظهره الجميل عكس باطنه القبيح، ولذا نال إعجاب «**السلاموني**» ومدير أعماله، وأصبح محل اهتمام كل منهما، كانت الخطة تقتضي ضمه لفريق تهريب المخدرات، بعد أن أصبح «**بشندي**» موزع الهيروين، والحشيش ورقة محروقة، ومعروف لدى الشرطة، هكذا قال «**شوكت**» لـ «**السلاموني**»، والأمر يحتم على الشرطة ضبطه، كان الشرفاء يرون أن ضبطه عملًا وطنيًا، أما بعض المغرضين يرون أن أمر القبض عليه يأتي كنوع من الدعاية.

اليوم أصبح «**حسين**» هو الورقة الرابحة، والوجه الجديد، والبديل المضمون، لم تكن «**ليلى**» تعلم عن «**حسين**» وهي تتعامل معه سوى أنه بائع سميط، ومورد لبعض الزبائن، ولم تكن تريد

أن تعرف أكثر من ذلك.

هي الآن غارقة في نهر الحب وتنتظر مطلع العام القادم لإتمام الزواج، مع قدوم «**شكري**» أخيها من الكويت في أول إجازة بعد عام من سفره.

طار خبر موعد الزفاف إلى «**فواكه**» التي كانت تأمل في فشل هذا التقارب، كانت تعيش في حالة سيئة، فلم تكن تعلم أن تلك الفتاه المتغطرسة سوف تنتزع حبيبها انتزاعًا، كانت في حالة يرثى لها، وكان دور «**عبود بيه**» محوريًا في تخفيف حدة هذا التوتر، دعا «**تفيدة هانم**» و«**فواكه**» في رحلة إلى شرم الشيخ تم الترتيب لها بدقة، بحيث تبدو أمام «**فواكه**» أن التعارف وكأنه قد جاء صدفة، وبالفعل نجحت الخطة، وحدث تقارب من خلال عدة دعوات تحولت إلى صداقة حميمة بين «**عبود**» و«**فواكه**» فشعرت بروح الأبوة معه.

واستطاع أن يخفف عنها عناء الصدمة، شعرت «**تفيدة هانم**» براحة نفسية كبيرة عندما وجدت تنامي علاقة الألفة والمحبة بين ابنتها وحبيبها، أدركت أنه سوف يكون أبًا لها، وأصبح زواجها من «**عبود بيه**» مسألة وقت.

أما «**ليلى**» فكانت تستعد للزفاف وتدقق في كل كبيرة وصغيرة، لون فستان الفرح، ودرجة البياض، وكثافة الترتر الأبيض، وحجم الثقوب به، كان «**ناجي**» يصر على فستان مغلق لا يظهر جسدها، وهي تصر على أن يكون الفستان أكثر تحررًا، كاد الاختلاف في الرأي أن يتسبب في فسخ الزواج.

وتم تناقل الخبر بسرعة،وعلم بالأمر كل من الأسرتين، كانت محاولة إقناع «**ليلى**» بالانصياع لرغبة ناجي تشعل جنونها، وتزيد إصرارها، متمسكة بتفاصيل كثيرة ودقيقة، حتى «**الكوافير**» «**ناجي**» يريد أن تكون سيدة، وهي تصر على أن يكون رجلًا؛ لأنه أقدر مهنيًا على إبراز جمالها، تريد أن تظهر

كأنها حورية قادمة من العالم الآخر، حتى الحذاء كانت تصر على أن يكون مرتفعًا، وحين لفت «**ناجي**» نظرها أن ذلك قد يسبب لها مخاطر الانزلاق، لم تعر لرأيه أي اهتمام، اختارت كل قطعة من ملابسها بعناية شديدة وفريدة، لدرجة صورت لأقرانها أن زيها قد تم شراؤه لكي تعيش به على شاطئ البحر، وليس في شقة الزوجية.

حاولت «**رجاء**» بغيظ أن تثنيها عن ذلك دون جدوى، هي مهووسة بأن تكون مثيرة ورشيقة، ولو على حساب نفسها، رضخ «**ناجي**» في النهاية لكل ذلك، وما زال بداخله أمل تغيرها فيما بعد، طريقة لبسها تثير غضبه، فتلك الأنوثة من الصعب على رجل أيًا كان أن يتركها تفلت من يده، كان يغار عليها من النسيم إن داعب خصلات شعرها، وهي تطير فرحًا إذا هتفت بحسنها. هذا التناقض الذي تولد داخل «**ناجي**» جعله منقسمًا إلى شطرين: الأول يتمثل في ميله نحو اقتناء هذا الكنز داخل شقته بعيدًا عن الأنظار، يستمتع به وحده، والثاني قبول الوضع على مضض لحين إقناعها في المستقبل.

«**ناجي**» من ذلك النوع من الرجال الذي يجيد الحديث ويستطيع أن يفرض وجهة نظره على الآخرين بقوة الحجة والبيان، كان قليل الكلام، دائمًا ما تعبر عيونه عن معان قاسية لا يقولها بلسانه وقت الغضب، مما يجعله دائمًا صاحب الحق.

تم الزواج في حفل يجمع بين البساطة والتحرر، كانت «**ليلى**» فيه ست الحسن، جعلت كل الرجال ينظرون إليها بنهم، السعادة تغمرها كلما أحست بتلك اللوعة في عيون المحرومين، تتحرك وترقص كالغزال الرشيق، ورغم هذا المجهود الشاق لم تشعر بأي تعب.

«**ناجي**» كان يحاول على رأس كل ساعة من الليل أن ينتهي الحفل، وينسحب غيرة عليها، ولكنها تطلب منه أن يؤجل

ذلك حتى قاربت الساعة الثالثة فجرًا، وأخيرًا قام وحملها من فوق المقعد وأنزلها على الأرض،ثم سحبها إلى موكب الزفة الأخيرة، مرت دقائق، وأصبحا في شقة واحدة، كانت لهفة الظمآن وشوقه إليها تفوق كل الحدود، وهي الأخرى تشعر بحب جارف نحوه.

انطلقت كلمات المداعبة كأنها سيل من الرقة والحنان يتدفق من فوق ثغر الفتى، هذا الأسلوب في التعامل هو مفتاح قلبها، للكلمة مفعول السحر عليها، كلما ألقى الفتى كلمة رقيقة تحلق كالطائر في حدائق العشاق، مرت الليلة الأولى والثانية وهما في عالم الحب الصافي يرتشفان من رحيق المشاعر ما لذ وطاب في دروب الهوى.

وقررا الذهاب إلي الإسكندرية لقضاء شهر العسل، هناك الجو ملائمٌ لإشعال مشاعر الحب، وخاصة أن الشاليه على البحر مباشرة، منظر الأمواج المتلاطمة ونسيم الصبح الرقيق يبعث في النفس نشوة خاصة، لا مثيل لها.

كانت «**ليلى**» عندما تسير على الشاطيء تحدث ثورة عارمة، الكل ينظر إلى جسدها المتناسق، وخاصة أنها تنتقى حتى ملابس البحر بعناية ودقة، المايوه البكيني، حتى حاملة الصدر الصغيرة لا تغطي سوى الجزء العلوي من مقدمة الصدر، بقطعة شفافة تظهر الهالة البينية وتفاصيل زيتونة سوداء فوقها تزينها كأنها تاج مملكة الهوى المشتعل، المايوه لا يكاد يستر شيئًا من جسدها، كانت نظرات الشباب وكبار السن تلتهمها التهامًا.

مع كل نظرة تسدد نحوها، يحترق الفتى من الألم احتراقًا، إنه يريد أن يستمتع بهذا الجمال وحده، وهي تثير الدنيا حولها أينما حلت، متعتها في أن تقيمها في صخب لتحرق من حولها، علق «**ناجي**» معترضًا أكثر من مرة على هذا الزي، بل وصل الأمر

إلى مشاجرة حادة في اليوم الثاني من زيارة الشاطيء، كانت مصممة على ارتداء هذا اللبس الفضفاض الذي لا يصلح سوى لغرف النوم، بواعث هذا السلوك خفية وغير مفهومة للطرفين، هي تريد أن تكون محط الأنظار والإعجاب، دون أن تدري ما السبب؟ وهو لا يستطيع تفسير هذا السلوك الغريب، على الرغم من أنها محترمة وليست من المستهترات، وقد جرب ذلك بنفسه أثناء فترة الخطوبة، كان يقتنص منها بعض القبلات بصعوبة شديدة على الرغم من تحررها في الزي لم تكن أبدًا صيدًا سهل المنال.

عاد في المساء لم ينطق بكلمة واحدة، كانت كل الشتائم والسباب تنهال من عينه دون أن ينطقها بلسانه، نظرته كالسياط الحادة، دخل فجأة إلى غرفة النوم، وأخرج لبس البحر والمايوهات ومزقها، ثارت «**ليلى**» وأخرجت غيظها في صرخة حادة هزت أرجاء المكان، تنطلق شهقاتها من صدر يغلي كالمراجل، سحب الغضب هطلت كما السيل العرم، كانت نظراته وتعبيرات وجهه الثائر أشبه بمدفع تطلق الَرصاص عليها، هي تجلس صامده تصد هجومه الكاسح بالصمت القاتل، لا تجد شيئًا تقوله سوى زفرات من الحزن. الغيظ يشعل ما يلمسه من هواء، فأحاط بالعاشقين سوارٌ من جحيم.

في الأسبوع الأول من شهر العسل، كانت مرارة الجفاء قاتلة، تحول النفور إلى حائط منيع، بعد قصة حب ولدت فوق المستحيل، أحاط الشوك بالقلبين، كانت تسأل نفسها هل هذا هو «**ناجي**» الذي عرفته وأحببته، لقد أمضى عامين يبادلها كل معاني الحب الرفيع، وكلماته الرقيقة كانت تنهمر من فيض الفضاء كأنها البلسم الشافي، تبًا للرجال عندما يتبدلون، ويطلقون في النظرات الحادة قسوة البطش الرهيب.

قدرة «**ناجي**» على الهجوم غريبة ومتفردة، يكيل كل أنواع

السباب بتعبيرات وجهه دون أن ينطق بكلمة واحدة، كانت على هي العكس، تترجم غضبها إلى ثورة وكلمات وصراخ، لم يستطع أن يحتوي جموحها، وبدأ يمنعها من نزول البحر وسط الزحام قهرًا، ويجبرها على الاكتفاء بالجلوس في شرفة الشاليه، أدرك «**ناجي**» أن بقاءه في الإسكندرية سوف يزيد المسافة بينهما، فادَّعى وجود مشكلة في العمل، وعادا معًا إلى القاهرة، واستقلَّا القطار السياحي بغرفة خاصة.

طوال الطريق لم ينطق أحدهما بكلمة، الأفكار تدور برأس كل منهما، ليلى تتذكر الكلمات الرقيقة التي أمطرها بها، وخاصة في لقاء المساء نهاية الخميس الأول من كل شهر بكافتريا «**الأمل**» بالقرب من قصر المناسترلي، والذي يقع في نهاية جزيرة «**الروضة**» بالقاهرة و يطل على نهر النيل، تذكرت اللقاء الأول؛ حينها أبدت إعجابها بقميصه، وطلبت أن تأخذه منه، وأعطاها إياه،فقامت بإجراء بعض التعديلات عليه، وارتدته كبلوزة، كان وقتها يسبح بها في نهر الحنين بالكلمات العذبة الرقيقة.

وعدها أن يظل وفيًّا لها طوال العمر، ولن يغضبها، وعدها أنه سوف يكون رهن إشارتها، هذا الكلام الجميل كان يشق قلبها البكر كما تشق المياه الهادرة الأرض لتروي الظمأ، كانت ترتوي وتنتشي، وتحلق في الآفق الفسيح، تصورت أن «**ناجي**» سوف يظل المغرد الطروب في عالم الشوق، رأسها الصغير عاد إلى أغوار الماضي القريب كيف كان للكلمات معنى، وكيف كانت الهمسات كالأنشودة التي تهز الفؤاد، واحسرتاه، لقد تغير الفتى عندما امتلك البدر بين يديه.

بين الفينة والأخرى كان الفتى يحاصرها بنظراته، عاجزًا عن الكلام، ويحدث نفسه حزينًا، بعد أن أدرك أن مهمته في تغيير سلوكها أشبه بعملية انتحارية في ساحة الوغى، وها هو الأسبوع

الأول من الزواج ممتعٌ ومؤلمٌ، لحظات السعادة والنشوة يقابلها لحظات ألم وغيرة قاتلة.

ربما كانت المشكلة أنه لم يدرك طبيعتها، إنها تستجيب إلى الأشياء بالرفق والحنان، أسلوب النقد أو النظرات الساخرة تجعلها تتشبث برأيها، لم يكن خبيرًا بدوافع السلوك لدى المرأة، وهي ليست كأي امرأة، هي من طراز جُبلَ على العناد والتحدي، الطرق التقليدية في الحوار تجعلها أشد نفورًا وجموحًا، الانكسار يبدو على وجه «**ناجي**» كأنه هزم من الدنيا، خيم الوجوم والصمت على رحلة العودة، وهذا كان من المستحيل أن يحدث قبل الزواج، كانت الكلمات تشق الهواء كالسيف بالحب قاطعة الدلالة، أين ذهبت هذه الكلمات، من سد طريقها وهي تتدفق كالصبح نحو اليوم الجديد، شتان الفرق ما بين الأمس واليوم، يعودان إلى الشقة وكل منهما يحمل ضد الآخر شحنة من الغضب، ولكن مازالت بقايا الحب تغلف التوتر بسياج من حرير تمزقت أطرافه.

قامت «**ليلى**» قرب المساء بتغيير ملابس السفر، وأعدت العشاء ووضعته على «**تربيزة السفرة**»، وأضاءت شمعة كبيرة. ارتدت قميص نوم أسود قصير فوق «**المايوه**» الأسود الذي قررت ارتداءه في الشقة عوضًا عن الشاطئ، وروب كحلي، كان جمالها مبهرًا، فهي مثيرة جدًا، يبدو أنها راجعت نفسها، وقررت أنه لا مجال للتوتر خلال شهر العسل، وعقدت النية على المصالحة، ووضعت عطرها الشذي فوق المكان بأثره.

نفذت رائحة الشذي الطيب نحو «**ناجي**» فأنعشته، وتبدد القلق، كان مستلقيًا على السرير عندما سمع صوتها تناديه، ضربه الحنين، تظاهر بالنوم، اقتربت منه لتوقظه كي يتناول العشاء، رائحتها اجتاحت كيانه، وأريج أنوثتها اخترق تلابيب قلبه، لم يتمالك الفتى أعصابه، جذبها نحوه وانهال عليها بالقبلات، التي يطبعها مغلظة كقتيل في الهوى يوقع صكوك

الغفران حتى ينجو من الهجير، فقد تاب وأناب، كان دلالها في التمنع كمن يحرض الأشواق على الانتحار، انطلق من جديد يطبع القبلات على ثغرها كأنها الموج الهادر، فيضربه هدير الرغبة، بدلال، ونعومة تحاول التخلص منه :

- **ليلى:** العشاء أولًا.
- **ناجي:** أنت العشاء يا حبيبتي.

أطبق عليها، والتفّ حولها كأنها الدنيا قد أقبلت، وراح يسد رمقه من الجوع نحوها، ويسقي روحه من الظمأ إليها. نثر اللقاء الحميم طقوسًا دافئة، فوقعوا المصالحة بأحرف العشق الأولى. وأنهك كل منهما الآخر ثأرًا لعشقه الجريح.

تحول «**ناجي**» إلى بركان من الحنان تتفجر منه الأحاسيس والكلمات المعسولة، ربما كانت هذه الليلة هي الزفاف الحقيقي، فقد مسحت آثار الغضب في قلبيهما، وسط حالة من الصفاء النفسي الذي خيم على المكان، انتهز ناجي الفرصة وطلب منها عدم الذهاب إلى العمل، فالمحاماة مهنه لها محاذيرها، ولا تناسب الأنثى؛ لأنها تجعلها دائمًا على اتصال بالمجرمين وأرباب السوابق، لمس ناجي دون أن يدري مفتاح شخصيتها، هي بالرفق واللين يمكن أن تستجيب لأي شيء، باعت حلمها لإرضائه، وقررت إيقاف مشروع حياتها الأول بأن تصبح سيدة أعمال ناجحة، ومحامية لا يشق لها غبار.

وسبب ذلك أن «**ناجي**» يطلب منها ذلك في صورة أقرب إلى التوسل، لم يكن يكلمها بلهجة آمرة، أيقنت بما لا يدع مجالًا للشك؛ أن لحظات السعادة التي عاشتها هذه الليلة أهم من أي حلم آخر، فقد نزع الفتى المرارة من جوف الشهد، فأصبح الترياق حلو المذاق.

١٥- الانكسار

لم تكن «**ليلى**» راضية تمامًا عن تركها العمل، وتفرغها كربة منزل، مشروعها في أن تصبح محامية كبيرة قد سقط، لم تكن تريد أن تضحي بالأمل الذي طالما عاشت تحلم به، كانت تفرج عن نفسها وأحلامها المكبوتة مع «**رجاء**» صديقتها الوحيدة وملاذ سرها، و«**رجاء**» تشجعها على الاهتمام بالبيت وتكوين أسرة، على اعتبار أن الأمومة أعظم مهنة يمكن أن تمارسها المرأة، وأن كانت «**ليلى**» تتظاهر بالاقتناع فلأنها لا تحب الجدل.

تزوجت «**رجاء**» من موظف وسكنت بمنطقة «صقر قريش» والتي تعرف بكثرة أسواقها، والكثافة السكانية العالية، ورغم أنها تابعة لحي «**المعادي الجديدة**» الراقي بالقاهرة إلا أنه تضم تضم الطبقة المتوسطة، وتحت المتوسطة، ومع ضيق العيش كانت سعادتها مع زوجها تروِّح عنها هذا الضيق، لم يكن أمام «**ليلى**» متنفسًا سوى الاتصال بها تلفونيًا بصورة يومية، فقد اهتدت أخيرًا إلى أن الحديث مع الإناث يجنبها غضب العاشق الولهان، الذي لم يسمح لها إلا بالتعامل مع «**رجاء**» وأسرتها، هذه القيود من وجهة نظرها جعلت الشقة بمثابة قفص من ذهب.

فقدت «**ليلى**» حريتها وانطلاقها، الأيام تمر كأنها الدهر، عقارب الساعة تتحرك ببطء، ولم تجد متنفسًا سوى الطعام، بدأت تفقد رشاقتها تدريجيًا، وزنها أخذ في الازدياد، تحولت إلى صانع للطعام، وملتهم له في ذات الوقت، و«**ناجي**» كلما التزمت بيتها سعد بها، فهو لا يريد أن يراها أحد سواه.

لم تكن لديه مشكلة في أن تصبح ممتلئة، فعلى الرغم من ازدياد وزنها مازالت الأنوثة فيها كاملة النضج والإثارة، الزيادة موزعة على الصدر، والأرداف، والذراعين، والخصر، أصبح

الشكل أكثر إثارة، فتقاسيم الجسد كانت منحوتة بيد فنان باهر، كل شيء فيها ينطق بالأنوثة كما ينطق القمر بالبهاء، الأيام تزيدها سحرًا وتألقًا.

تكاد السعادة تنطق فوق وجه «**ناجي**» لأنه امتلك لؤلؤةً نادرة الوجود، قضى أيامه يحلق في عالم السعادة والمرح، وهي تعيش محبوسة داخل هذا الجسد الناري، الذي بات مبتغى كل من يراها من الرجال، المشكلة هي إصرار «**ناجي**» على أن يعاملها كقطعة أثاث يمتلكها، هذا الأسلوب يزلزلها، إنها لن ترضى أن تكون وعاء للرغبة فقط، أحلامها العريضة أن يكون شريك العمر فارسًا يعي أهمية الحوار، ويقدس العلاقة بين الرجل والمرأة، دونما اختصار الموضوع على العلاقة الجسدية، تلك الفكرة باتت تقتلها.

فقد ضحت بمشروع حياتها حتى يثمر هذا الحب استقرارًا، ومع هذا مازال زوجها يتعامل بغيرة قاتلة، وكلما اشتكى إلى أمها أمرًا، عنفتها الأم أشد ما يكون التعنيف، مما كان يرفع من وتيرة الغيظ لدى «**ليلى**» ومقصد الأم من حدتها أنها ظنت أن الهجوم عليها سوف يجعلها تحافظ على زوجها.

لم يكن أحد يدرك ما يدور بداخلها، الكل يطلب منها أن تعيش وتلتزم بالطاعة، أما هي فلم تكن من النساء التقليديات، و«**ناجي**» لم يكن يغفل تلك الخصوصية، كل عنف تجاهها يؤدي إلى كثير من العناد، في وقت الاختلاف كان «**ناجي**» يمارس أصعب أنواع العنف على قلب هذه المرأة، ألفاظ الاستنكار والاستهزاء مرسومة على معالم وجهه، كان صادمًا يلقي فوقها أحمالًا أثقل من الجبال، وينسى أنها حالمة تتوق إلى الكلمات العذبة، مفتاحها كامرأة كان الأسلوب الرقيق، وهذه الحقيقة لم يكن «**ناجي**» وحده من يجهلها أو ينساها، فالكثير الرجال كذلك، وعندما يتعاملون مع النساء، يقهروهن بالعضلات.

كانت كلمة دافئة كفيلة بإقناعها بترك العمل، ماذا لو كانت كل الليالي دافئة؟ ماذا لو كانت لغة الحوار هكذا؟ ثقافة إخضاع المرأة عنوة تسيطر على عقله الباطن أسوة بمعظم الرجال في الشرق، يناقشها ليس إيمانًا بالرأي الآخر، ولكن كنوع من التنفيس أو التعرف على ما يدور برأسها، وهي تلقي بكل ما يجول بخاطرها، كانت كتابًا مفتوحًا، تارة يصبح الجو متقلبًا، وتارة تصبح سماء الحب ملبدة بالغيوم، وتكاد أن تمطر الصواعق، فيخطف البرق أبصار المحبين، وتتساقط في بعض الليالي ثلوجٌ تجمد بهجة الحياة، ولا تذوب لحظات الجمود إلا عندما تشرق شمس الشوق.

ذات مساء عاد «**ناجي**» فإذ بـ« **ليلى**» في المطبخ تعد العشاء، كانت ترتدي قميص النوم، وبالشرفة المقابلة شابٌّ يتتبعها بعيونه، زأر كالمجنون، وأغلق الشرفة وجذبها بحدة إلى غرفة النوم، وأخرج الروب من الدولاب وقذفه في وجهها.

- **ناجي**: استري نفسك يا هانم.
- **ليلى**: (بذهول) لم أقصد.
- **ناجي**: الناس يتفرجون عليكِ.
- **ليلى**: حدث ذلك سهوًا، وكان من الممكن أن تكلمني بطريقة أفضل.

نظر «**ناجي**» إليها بغيظ وغيرة مجنونة، خيم التوتر من جديد، بالأمس كان يكلمها بنفس الطريقة فقط لأنها فتحت له الباب والروب مفتوح، تحول إلى مراقب يعد عليها كل حركاتها، استشاط الغضب بها، قررت ألا تنام معه في غرفة واحدة، تركت العشاء داخل المطبخ ولم تقم بتجهيزه ودخلت غرفة الصالون، وأغلقت على نفسها بالمفتاح.

بعد فترة، وقرب منتصف الليل طرق عليها الباب؛ أخبرته أنها سوف تنام وحدها أو تترك الشقة، استبق الأحداث ورفع سماعة

التليفون واتصل بأمها وأبيها وقص عليهما الأمر، في صباح اليوم التالي استيقظت على طرق الباب، فتحت لأمها استقبلتها بترحاب، وعندما سألتها الأم عن زوجها لم تقل كلمة سيئة عنه، بل أخذت تشكر كرمه، عندئذ فاجأتها الأم بشكوى زوجها:

- **الأم**: مادام الأمر كذلك، لماذا تنامين وحدك؟، لقد قص علي زوجك كل ماحدث بالأمس، وأنتِ مخطئة، لايجوز لامرأة أن تقف أمام الشباك بقميص النوم.

- **ليلى**: قص عليكِ الأمر بهذه السرعة!

هنا جن جنونها، كانت تريد ألا يطلع أحد على مشاكلها داخل البيت، اعتبرت أن ما قام به الزوج تشهير بها، لمس «**ناجي**» الجراح القديمة لديها بفعلته، هي كانت قد بدأت تتغير، وتستجيب بالتدريج لكل ملاحظاته، ولكن ببطء، دون أن يدري طعنها لدى أسرتها التي كانت تلاحقها بالنقد بصفة مستمرة، كانوا دائمًا ما يقولون لها:

- لن تعمِّري في بيت الزوجية.

وكان الزواج بالنسبة لها هو التحدي حول بطلان هذه النظرة، اليوم هذه الشكوى جددت المعايرة، شعرت أنها لم تحقق الاستقلالية بالزواج، كانت هذه الشكوى بالذات مصدر ارتداد عكسي نحو نقطة الصفر، جنت هي! لم تكن تريد لأي فرد أن يعرف ما يجري داخل شقتها، شعرت بطعنة قاسية، عادت الأم إلى منزلها بعد أن كالت النقد القاسي لها.

وفي المساء عاد «**ناجي**» فوجد «**ليلى**» تفتح كل الشبابيك، وتجلس بقميص النوم دون اكتراث، تحركت بؤرة العناد لديها من جديد، لقد نسف «**ناجي**» كل ما قام به من ترويض لهذه النمرة الشرسة، مرض العناد العضال لديها قد توحش، عندما بدأ يلومها على ذلك أخبرته أنها لن تغير من طريقة لبسها، كانت تريد أن تؤلمه كما سبب لها الآلام بالشكوى، تذكرت

كلام أمها القديم كأنها تسمعها في التو، وصوتها يطن بأذنيها:

- صوت الأم: لن تفلحي مع أي زوج.
- ليلى: (**صرخت بعنف**) لا أريد أن أفلح (**تلتفت نحو**
- **ناجي**) لا أريدك.

رد عليها «**ناجي**» بصمت صارخ كالعادة، أطلق نظراته القاسية كالخناجر تنهال على قلبها، زمجرت كالأسد الجريح، تركته ودخلت غرفة الصالون، ودفعت الباب بقوة في وجهه، تكررت المشاجرات، وتكررت الشكوى، وتدخل الأب والأم والأصدقاء. والكل يلومها، تحول الحب العميق إلى فتور، لم يكن السبب في ذلك هو نقص الموارد المادية التي تتهم عادة بإفشال قصص الحب، هل السبب عدم إدراك ناجي لطبيعتها وجرحها القديم، أم أن القمع من قبل الأبوين في مرحلة الطفولة أصابها بعقدة نفسية مستعصية على الشفاء؟

تحولت الفتاة إلى كائن عصبي وعنيد، تحولت رقتها إلى شراسة، وهو كعادته يلقي الكلمة من عدة أحرف؛ ليجعلها تدور في أتون الأفكار المحرقة، فرغم حبه لها، يتصرف معها دون مراعاة لتكوينها المختلف، وتعددت المشاكل التي لا تخرج عن كونها غيرة حادة بأسلوب يستفزها، ويدفعها إلى العناد كالمهرة الحرون، حتى طلبت الطلاق، لم يكن «**ناجي**» يصدق أنها تتكلم بجدية، فرد عليها باستهتار:

- ناجي: موافق بشرط أن تتنازل عن كل شيء.

والمفاجأة أنها أخرجت ورقة وقلم ووقعت على تنازل عن كل حقوقها في الأثاث، ومؤخر الصداق، والنفقة، حتى الملابس، لم يصدق «**ناجي**» أن مزحته تحولت إلى أزمة، وتلكأ وقام بالدخول إلى غرفة النوم، حتى استفزت رجولته بكلمات قاسية.

- ليلى: إن كنت رجلًا، نفذ كلامك.

- ناجي: ولم العجلة!؟
- ليلى: الرجل الحر لا يلحس كلامه، هيا حالًا على المأذون.

دون أن يدري خرج معها كالمجنون، وذهبا لأقرب مأذون، شعرت «**ليلى**» بزلزال يعتريها، حبست الدموع وتماسكت، أمامه، لم تشأ أن تشعره بالضعف، ورغم أن الدم يفور في عروقها كغليان الزيت بالقدر، غادرت وحدها دون أن تتكلم، وعادت إلى البيت في الساعة السادسة صباحًا وسط ذهول الأسرة، لمحت أسئلة كثيرة تحاصرها.

- ليلى: (**بصوت حاد**) تم طلاقي من **ناجي**، ولا أريد تعليقًا.

خيم الحزن على الأسرة، ظل أبوها صامتًا، كان يعلم أن ابنته في حالة لا تسمح بأي حوار، أما الأم أصابها الفزع، فتقدم الأب نحوها وأمرها ألا تحاول الكلام مع «**ليلى**» الآن في شيء.

الفتاة الحالمة التي مازالت عروسًا، انضمت إلى كتائب المطلقات، الحب الذي ولد كالبراعم الخضراء أصبح هشيمًا تذروه الرياح، تلك النهاية المأساوية لم تخطر ببال العاشقيْن، اللذين تعاهدا بالأمس على البقاء سويًا لآخر العمر، هل الحب وهم كبير، أم أن البشر لا يعرفون من الحب سوى اسمه؟ المهرة الحرون منهارة تمامًا، كل الصور السوداء باتت تدور في رأسها. تتذكر كلماته! أليس «**ناجي**» هو ذلك الحبيب الذي تعاهدت معه على الوفاء؟ ألم يكن هو الحبيب الذي قال لها: لن يفرقنا أحد سوى الموت. وهي أيضًا قد تعاهدت معه على ذلك، ها هو الآن يطلقها بعد ستة أشهر، الحب الذي كان حديث المدينة لم يصمد سوى عامين قبل الزواج، وعدة أشهر بعده، ونقض المتعاهدين بعهودهما، وسبقا الموت بالفراق عن بعضهما البعض.

تولد لديها إحساس بأن الحب أكذوبة كبرى، نقطه سوداء أخرى تتطبع بداخلها لتكون راسبًا نفسيًا جديدًا، كان يمكن

أن تحبس نفسها في سلاسل من حديد لو أنه أحسن وأجاد طريقة التعامل، ترى لو كان مترفقًا بها؟ كان من الممكن أن تصبح كالخاتم بين أصبعيه، مر اليوم، وجاء الصباح التالي دون أن تشعر بحركة الزمن، أو تحدد ما سوف تفعله؟.

بقاؤها في البيت سوف يحد من حركتها، لقد أصبحت مطلقة، والأمر صار مختلفًا، أنفاسها من الآن فصاعدًا معدودة عليها، وبالخارج الكل سوف يحاول اصطيادها، أصبحت كالفريسة تلهث وراءها الذئاب الجائعة، شعرت الذبيحة أن الزمن قد توقف عند لحظة الطلاق، وخاصة أن الأيام الجميلة في عمر هذه الزيجة كانت قليلة، الشرخ الداخلي في أعماقها أكبر من أي تصور، كل ما حلمت به طوال العمر ما هو إلا سراب، بعد اليوم لا يوجد شيء في نظرها اسمه الحب، مجرد لحظات سعيدة يشعر بها الرجل والمرأة في لحظات اللقاء وقت قضاء الغريزة، عامل جديد سوف يحكم سلوكها في الأيام القادمة، ألا وهو أن الحب أوهام من صنع الخيال، هكذا أضاف «**ناجي**» إليها عقدة مستعصية، بالطبع هو لم يقصد ذلك ربما أحبها بجنون، ولكن ماذا ستفعل «**ليلى**» في الأيام القادمة بعد أن فقدت الثقة في لغة المشاعر.

١٦- حافة الضياع

لقد كسرت أنف الفتى في غياهب الحب، فلا أحد يستطيع أن يبحر في أغوار هذه العاطفة دون كياسة وترفق. الحب كالورود يحتاج دائمًا للماء حتى ينمو، وماؤه الكلمات العذبة، وغذاءه الصبر على زلات المحبوب، عدوه العنف، وناره الغيرة، تأكله كما تأكل النار الحطب. وإن كان الحب قدرًا لا فكاك منه، فإن اقتحام الأمواج المتلاطمة يحتاج إلى بحار ماهر، فالعواصف في بحر الأشواق عاتية.

استقبلت «**فواكه**» خبر طلاق «**ليلى**» بفرحة غامرة، نتائج التجربة ربما تعيد الطائش بالهوى إلى رشده. تجدد الأمل لدى «**تفيدة هانم**» في عودة الفتى لابنتها، فذهبت لـ«**ناجي**» في الشقة عقب سماعها الخبر، وقبل أن تقول كلمة واحدة، وبمجرد أن فتح لها الباب أدرك ما ترمي إليه، كانت المواساة أشبه بدعوة صريحة للزواج من «**فواكه**»، كان منهكًا، تتكلم وهو لا يسمع، يومئ برأسه دلالة على متابعة الحديث، وهو شارد الذهن حتى انصرفت.

ذهب إلى المعرض لينفث عن همه بالعمل، فهو مازال متعلقًا بـ«**ليلى**» وبجسدها، وبشكلها، هي أنثى كالخمر في تأثيرها، من تذوق طعمها يدمنها، كما يدمن السكارى الخمور المعتقة، ولكنه يريدها بأسلوبه، تلك المعادلة كانت صعبة.

حاول صديقه «**رضوان**» أن يقنعه بأهمية الزواج من أخرى، وكم تفنن في سرد مساوىء «**ليلى**» أمامه، فالمتحررة الجامحة لا تقتنى، كان يسمع الكلام بعقله فيقتنع، ويجد في كلامه شيئًا يريحه، كان يريد أن يُسوغ لنفسه أن قرار طلاقها كان صحيحًا، أما إذا خلا بنفسه، عاتبه قلبه أشد ما يكون العتاب، وظلت روحه تزجره، كما تزجر الأم صغيرها إذا أخطأ، هو

كمن ينام بين الألم، وكمن يمشي فوق الشوك. كان يتردد بين أمه «**شكرية**» وخالته «**تفيدة**» لعله يجد السلوى، ولكن كل الترحاب لا يشفي غليله، حتى مناقشات «**عبود بيه**» لا تطربه، فقد تزوج خالته قبيل واقعة الطلاق، وعاش معها بفلتها بالجيزة. كانت الفيلا كبيرة، وجميلة، والمباني مقامة علي ٣٠٠ مساحة مترًا، وبها حديقة ضعف مساحة المبنى تقريبًا، سكن العروسان بالطابق الثاني، أما الطابق الأول فكان لاستقبال الزائرين، والطابق الثالث كان مخصصًا لـ«**فواكه**» بعد زواجها.

توطدت علاقة «**عبود بيه**» بـ«**ناجي**» أكثر، وأكثر، كان يمده بما يحتاج من البضاعة، حتى استحوذ على السوق، وحصد أعلى نسبة من الأرباح ، فتجارته تضاعفت، حتى أصبح من كبار تجار الجيزة، وهمومه أيضًا زادت فأصبح عميد المهمومين.

ومرت الأيام ثم العام الأول بعد الطلاق، انتهزت «**تفيدة هانم**» وحدته، فبعد أن جرَّب الحب وتأكد له فشله ربما يعود، بقلب أم تبتغي الستر لابنتها جددت عليه عرض الزواج من «**فواكه**»، كانت تحاول إقناعه بأن الحب وحده ليس كافيًا، فهو محض أوهام، والغريب أنها كانت تناقض نفسها، بدليل زواجها من «**عبود بيه**» بعد قصة حب جارفة. «**ناجي**» كان يعلم أنها تقول ذلك من أجل إسعاد ابنتها الشغوفة به، كان يحترم لهفة أمٍّ تحترق لإسعاد وحيدتها، وعدها بالتفكير في الأمر، وهي تطوقه بالإلحاح، فأمانته، وصدقه جعل قلبها متعلقًا بـ«**ناجي**».

مع المماطلة أيقنت «**فواكه**» أن مسألة زواجها من «**ناجي**» أصبحت وهمًا، وترسخت هذه الحقيقة لدى الجميع، وهذا قد أفسح للخطاب طريقًا نحوها، وأول من تقدم لها خاطبًا «**حسام**» ابن «**عبود بيه**»،وكان علي عكس أبيه، يقدس المادة، ويسعى وراء المال أينما وجده، ولكنها من بين العرسين فضلت أن تختار «**رضوان**»؛ لأنه من طرف «**ناجي**»،وهكذا رأت «**تفيدة**

هانم»، فثقتها ب«**ناجي**» كانت بمثابة تزكية الشقيق لعريس شقيقته، وهذا جعلها تدرك أن هذا الترشيح إنما جاء عن قناعة منه بأمانته، هو لن يقدم على ذلك من باب المجاملة، واكتشفت الأسرة فيما بعد أن «**رضوان**» رجل يستحق التقدير، فهو نموذج للزوج الصادق الحنون، استطاع أن ينتشل «**فواكه**» من همومها، هذا ما أثلج صدر «**تفيدة هانم**».

أما «**ليلى**» كانت ناقمة، فبعد طلاقها من «**ناجي**» بأسبوع اكتشفت أنها حامل، لم تطق أن يأتي مولود يربطها به، وهو سبب صدمتها، أجهضت نفسها، حاولت أمها منعها دون جدوى، كانت عنيدة جدًّا في هذه المسألة، وبعدها عادت إلى العمل بمكتب «**فرج همام**» . كان «**وليد دعبس**» يعلم أنها مطلقة، ولكنه كعادته لم يحاول أن يستغل ذلك، أو أن يقيم معها علاقة عاطفية، أو حتى يتفوه بكلمة إعجاب، كان يعاملها كأنها رجل مثله، تعجبت من ذلك!، أليس هذا الرجل مثل باقي الرجال؟.

كانت تشعر بأنها مقيدة الحرية داخل البيت، وخاصة أن هناك قطيعًا من العرسان بدؤوا في طرق الأبواب، إن امرأة مطلقة تغري كبار السن على طلب يدها بحجة أنها سوف تقبل أي زوج دون أي قيد أو شروط؛ لأنها مكسورة الجناح كما العادة، كان هناك ضغط عليها، ومحاسبة بالدقيقة في الخروج والدخول، من أمها وأبيها، وشعرت أنها بحاجة إلى أن تستقل بشقة خاصة بها، ولكن المرتب لا يكفي سوى مصاريفها الشخصية، وبعض المدخرات البسيطة.

جاءتها فرصة بعد فترة من العمل، وذلك عندما **رأت** «**نحمده**» **زوجة** «**بشندي**» تاجر المخدرات تريد الدخول لـ«**فرج همام**» ولكنه طردها رافضًا أن يقبل قضية زوجها، لم يكن ذلك بسبب أنها قضية مخدرات لتاجر عديم الضمير، ولكن لأنه

كما يقولون في لغة القانون قضية مقفولة، ولا يوجد بها ثغرات، وخسارتها سوف تنال من سمعته.

كانت «**نحمده**» رشقية، وجميلة، وسطحية، ولا تعرف من الدنيا سوي المال، واذا تكلمت ظهرت سوقيتها، فظنت أنها تستر جهلها بالذهب، فكست جسدها به، بداية من الرقبة الملفوفة بسلسة ذهبية كبيرة، وأذنها التي يتدلي منها «**القرط**» الذهبي الكبير، أما أصابع اليد فهي محشوة بـ«**الخواتم**» الكبيرة بفصوصا الماسية، وكل «خاتم» **محبوس** بـ«**دبلة**» **من أمامه**، أما «**الأساور**» فتنتشر من معصم اليد حتى كوعها، فاذا حركت يداها سمع صوت ارتطام الذهب ببعضه البعض.

تفحصت «**ليلى**» هيئتها، وهي خارجة تجر الخطى الثقيلة، معالم الحزن، والحيرة فوق وجهها، يشيان بأنها تحب زوجها، وتريد انقاذه بأي طريقة، أدركت أن هذه القضية هي فرصتها الوحيدة، وخاصةً أنها علمت أن أكثر من مكتب رفضها، خرجت وراءها **مسرعة**، وأخبرتها بإنها سوف تأخذ منها تلك القضية ففرحت «**نحمده**»، فهي لا تعرف أن «**ليلى**» مازالت محامية صغيرة، كانت تظن أنها مثل «**فرج همام**» فقد خدعت بأناقتها، واتفقت معها على نصف مليون أتعاب مقابل البراءة نصفها مقدم، وافقت «**نحمده**» كما الغريق الذي تعلق بقشة، واعتبرت «**ليلى**» أنها الفائز الوحيد في جميع الأحوال، وسوف تحصل على ربع مليون من «**نحمده**» التي لم يكن يهمها قيمة المبلغ المدفوع؛ يكفي أن «**محامي**» من مكتب «**فرج همام**» سوف يترافع في القضية.

استطاعت «**ليلى**» أن تحصل على أتعاب ما كان لـ«**فرج همام**» نفسه أن يحصل عليها لو وافق على قبول القضية، شعرت بنشوة بعد أن حصلت على قضية كبرى بعد أعوام من العذاب، كم كانت تعاني من التجول في المحاكم لدرجة أنها كانت تشعر

بالدوار من كثرة التعب، تخرج من الثامنة صباحًا، وأحيانًا تعود في العاشرة مساءً، وخاصة إذا كانت القضية التي تتولى الدفاع عنها استئنافًا، كانت قدماها تتورمان من كثرة التنقل، وتحمل معها قطرة للأذن حتى يتوقف الطنين الذي يلاحقها، ومسكنًا لآلام القدمين.

فرصتها الآن في النجاح كبيرة، وإذا كسبت القضية سوف تكون أشهر من «**فرج همام**» نفسه، قررت أن تأخذ أجازة من المكتب أسبوعًا بعد أن استلمت نصف الأتعاب وأودعتها بالبنك، وعكفت تخطط وتفكر، ودرست القضية جيدًا، واطلعت على كل محاضر الشرطة وتحقيقات النيابة، لم تكن تنام لدرجة أنها حفظت المحاضر والتحقيقات عن ظهر قلب، أمامها تحدٍّ كبير. ماذا تفعل؟

استطاعت الوصول إلى عدة ثغرات في اليوم الخامس من بحث القضية قامت بكتابة مذكرة الدفاع في بداية الأسبوع التالي، وذهبت إلى المكتب وعرضت المذكرة على «**وليد دعبس**»، فأبدى إعجابه الشديد بالمذكرة، وكذلك على جرأتها في المغامرة في هذه القضية، أخبرته أنها سوف تترك العمل الآن وسوف تستقل بمكتب جديد، كانت قد قررت ذلك، واتفقت معه على اللجوء إليه لتقديم الدعم والاستشارة، رحب بذلك، كان من الشخصيات النادرة، لم تجده يومًا يكن ضغينة لأحد، وهو اليوم يشجعها دون أن يطلب منها أي مقابل.

شغلها لبعض الوقت أن «**وليد دعبس**» هو الوحيد الذي لم يهتم حتى بالنظر إليها، كان متزوجًا من امرأة، علمت أنه يحبها جدًا، ولكن معظم الرجال يقولون إنهم يحبون زوجاتهم ولا يتورعون عن إقامة علاقات أخرى مع أي امرأة تصادفهم، ما سبب عدم اهتمام «**وليد دعبس**» **بها؟** كانت تقول لنفسها يبدو أن زوجته أجمل نساء العالم، فعلى الرغم من أن مكتب المحاماة

يعج بالسيدات من مختلف الفئات منهن سيدات كالملائكة؛ لم يهتم يومًا ما بأي سيدة تدخل، بل كان لا يمعن النظر حتى في شكلهن العام.

كانت تلاحظ أن بعضهن يتضايقن من عدم اكتراثه بهن، فهو يعيش في عالم المحاماة فقط، كانت «**ليلى**» مدفوعة بفضول قاتل لمعرفة مصدر تلك القوة، ولا تدري لماذا يشغلها هذا الصنف من الرجال الذي لا يلين أمام سهام حواء؟ هي امرأة خبيرة بهفوات الرجال، وتعلم ماذا يريد أي رجل بمجرد أن تنظر في عينيه، إلا هذا الرجل الغامض الأطوار الصلب، من أين جاء بهذه الإرادة الفولاذية!، لم يكن هذا الاهتمام حبًا، فقد كفرت بالحب، كان لغزًا تريد فك شفراته.

بعد ذلك عرفت سر استقراره؛ أنه يحب زوجته حبًا جمًا، وعادة الحب الحقيقي يجعل العاشق لا يشعر بامرأة سوى حبيبته، هكذا قالوا عن الحب، كان ذلك يدفعها لأن تفكر بجدية، هل كانت علاقتها بناجي علاقة حب؟ هل كانت مجرد علاقة غريزية تحت ستار زائف باسم الحب، تجربة «**وليد دعبس**» تؤكد أن الحب حقيقة، كانت تغوص في الآهات لا تخرج منها إلا بالعمل؛ ولذا كرهت الفراغ فهربت منه إلى أغوار المحاماة.

بعد أن تقاضت «**ليلي**» ربع مليون جنيه نصف اتعاب القضية من «**نحمده**»، وكان مبلغصا كبيرًا وقتها، اشترت شقة فاخرة بالدور الثالث بشارع «**البطل أحمد ابن عبد العزيز**»، مكتبًا للمحاماة، وتصادف أنهما بالقرب من مكتب ذلك الوغد «**سمير طايع**»، مما أشعل سخطه وغيرته، واشترت سيارة بالتقسيط، وشقة للسكن بأول شارع «**الملك فيصل**» من بجواركبري الجيزة، وأبقت ٤٠ ألفًا جنيها للطوارئ، مرت الأيام وكسبت «**ليلى**» أهم قضية في حياتها المهنية، وأصبحت ذائعة الصيت، أصبح اسم «ليلى» في عالم المخدرات كالأسطورة.

نجحت في أن تفك المشنقة من حول رقبة «**بشندي**» بعد فشل عتاة المحامين في فكها، وسعت إلى بناء علاقة اجتماعية مع الجهات التي تتعامل معها، من ضباط، وأمناء شرطة، وموظفي النيابة، تارة بالهدايا، وتارة بالمال، وتارة بالعزائم، نجحت في أن تخاطب كل فرد باللغة التي يفهمها، وفي أحيان أخرى تستخدم مهارة اللعب بعواطف الرجال حتى تصل إلى مبتغاها، تستخدم الألفاظ ذات المعاني المزدوجة، لدرجة تجعل البعض يعتقد أنها تحبه حتى تدفعه إلى الاعتراف، ثم تصدمه لتستمتع بقهر الرجال، بعدها يصبح الضحية مواليًا لها طوال العمر، على اعتبار أنها من الممكن أن تشعر به في الغد القريب، وهي بالطبع لن تشعر بأحد.

إن الملهوف عليها أصبح مجرد دمية تحركه كيفما تشاء، أو كعسكري في شطرنج تلقي به علي الأرض بمجرد أداء دوره، كان دافعها إلى ذلك هو الانتقام من الرجال، فبعد فشلها في الحب تولد لديها شعور ذاتي بالانتقام من كل رجل يسعى للتغرير بها، وتبذل ما في وسعها كي تؤثر في الضحية، وما إن يقع في الفخ حتى تلقي به طريحًا يتحسس أوجاعه، كانت سعادتها بذلك لا توصف، شعورها أنها مرغوبة من الرجال أهم ما يملأ حياتها الخاوية من البهجة، مرت السنون بسرعة وهي تقتل الضحايا بالشوق؛ كلما تقتلها الوحدة.

ودون أن تدري، تحول الأمر إلى مرض أشبه بالأمراض النفسية، تأكدت تلك الحالة عندما تعاملت مع رجل الأعمال المخادع «**فتحي شهدي**» الذي تعاقد معها على أن تتولى الشئون القانونية لمصنعه، كان رجلا وسيمًا، نحيلاً، متوسط الطول، وجهه شديد البياض، عيونه زرقاء، وشعره أصفر، يحرص على مظهره بعناية فائقة، وغالبا ما يرتدي البدل ذات الألوان الجميلة، كان يجيد اختيار وضبط رابطة العنق، ويطرز البدل بالدبابيس الماسية اللامعة، ويحسن اختيار العطور الثمينة، كلامه رقيق،

ويعاملها برقة تذيب الحنان في الإحساس كما يذوب السكر في الماء، كان يكيل لها كل عبارات الإطراء والمديح، في أروع عبارات عرفتها الرومانسية، ربما كانت ترى فيه بديلًا للحب الفاشل، الذي لم يدم سوى بضعة أشهر، تخرج معه، وتسهر، وتطوف الأندية والملاهي الليلية، فتح أمامها هذا العالم الجديد، كان المناخ مغريًا لها، دفعها الفضول أن تتعرف على كل ما يدور داخل تلك البارات، والفنادق الكبرى، كانت تسمع عن عجائب رجال الأعمال وأساطيرهم، بدأت تشرب السجائر من باب التقليد، وأحيانًا الويسكي، وتلبي دعوات «**فتحي شهدي**» للخروج في أماكن وسهرات مختلفة.

وقعت هذه المرة في يد رجلٌ محترف، يجيد بمهارة فائقة قواعد العزف على نقاط الضعف لدى النساء، وكان أول رجل يقترب منها بعد أعوام من الطلاق، عينه كانت تأكل صدرها، وتغوص بتفاصيل الجسَد بوصة بوصة، يجيد التمثيل، فلم تلحظ ذلك بداية الأمر.

توالت الأيام، والسهرات، والدعوات، تارة يمسك يدها، ثم يلمس في مرة أخرى صدرها، حتى القبلات، باقي خطوة واحدة لكي ينال مراده، في إحدى السهرات بعد أن أذاب معسول الحديث مقتولة بالظمأ؛ وبعد منتصف الليل خرجا من «**الملهى الليلي**» وركبت معه لتوصيلها، ولكنه توقف بها أمام أحد العقارات بشارع الهرم بمنطقة المطبعة، وطلب منها أن تصعد معه إلى شقته الفاخرة بالدور الرابع، كانت واجمة، لم تدر ماذا تفعل، لا تريد أن تنزلق إلى ذلك التيار، ونار الغريزة تشكل ضغطًا نفسيًا رهيبًا عليها.

جلس معها في السيارة لمدة ساعة حتى يقنعها بالصعود معه، لم يجد وسيلة يقنعها بها سوى ورقة بالجواز العرفي، أخرجها من حقيبته وكتب عقد الزواج، أصاب الدوار رأسها، ووقعت على

الورقة، ظنته يحبها، إنه مختلف عن «**ناجي**» فهو متحرر، ويؤمن بالصداقة بين الرجل والمرأة. لم تحبه ولكنها أعجبت به، أذهلها ثراؤه، وطريقة كلامه، وخفة دمه، لكن كل هذه الأشياء كانت تخفي وراءها ذئبًا بشريًا من نوع آخر.

صعدت معه وهي مسلوبة الإرادة، وقضت ليلة معه في منتهى الغرابة، كان يعاملها كفاجرة وليست زوجة، لم تشعر بنفسها إلا اليوم التالي نائمة بجواره، استيقظت بعد الظهر، قامت مسرعة إلى الحمام وبعدها خرجت إلى المكتب لم تصدق ما حدث كيف فعلت ذلك؟، فتحت الحقيبة لم تجد ورقة الزواج العرفي، ظنت في بداية الأمر أنها قد نسيتها في غرفة النوم، طلبت فتحي أكثر من مرة ولم يرد، ساورها مزيد من الشك والقلق عليه، فربما يكون قد أصابه مكروه، فقد كان يرد على تليفوناتها بلهفة المشتاق، وبعذوبة النسيم.

مر يومان لم تستطع الوصول إليه، وهو لا يرد، قررت أن تذهب إليه في مصنعه الجديد بمدينة ٦أكتوبر، كان المصنع يقع بالمنطقة الصناعية، ومخصصًا لصناعة الوجبات الفاخرة للقطط والكلاب، وبعد أن وصلت مكتبه قرب الظهيرة، سألت عنه السكرتيرة، أبلغتها أنه في اجتماع، وعليها الانتظار أو العودة في وقت لاحق، أصابها الذهول فقررت الانتظار، الوقت يمر ببطء، بعد ساعة ونصف خرجت من عنده سيدة ترتدي زيًا متحررًا، إنها «**فاتن**» تلك الراقصة التي شاهدتها معه في إحدى السهرات بفندق «**الفورسيزون**»، لم تصدق، هل هذا هو الاجتماع؟

«**فتحي شهدي**» كان مع غيرها، لم تكن تلك الغيرة تنم عن حب، ولكن إحساسها بأن فتحي يهتم بامرأة أخرى أكثر منها كان شعورًا قاتلًا، فهناك امرأة تستطيع أن تستحوذ على الرجال بدرجة تفوقها، دخلت عليه كان استقباله لها فاترًا على عكس عادته، أدركت أنه نال ما يريد منها، خلقت تلك المقابلة

شعورًا بالمرارة بأقسى ما تكون المرارة، اليوم قد تأكدت أن رجلًا آخرَ خدعها باسم الحب، وتأكدت أنه على علاقة بالمرأة التي رأتها تخرج من عنده.

استجمعت قواها وكظمت غيظها، وسألته بابتسامة مصطنعة عن ورقة الجواز العرفي، أنكر معرفته أي شيء عنها بعدما أعطاها إياها، واستأذن بسرعة لانشغاله بمواعيد هامة لا تقبل أي تأخير، انتابتها حالة من الثورة، والغضب جعلتها تقضم أظافرها دون وعي، خرجت من عنده وأدركت أنه سرق ورقة الزواج العرفي، وأن تلك الليلة الماضية كانت شيئًا آخر لا يمكن أن يطلق عليه زواج.

في هذا اليوم فقدت الثقة مطلقًا بأي شيء اسمه الحب، صرخت بصوت مخنوق:

- كلهم تجار نساء.

وانقطعت عن العمل أسبوعًا كاملًا تعاقب نفسها، هي كالمعلقة بين الموت والحياة، والآلام تمزقها، خدعت بطريقة ساذجة، ولكن هذه المرة خدعها كلبٌ مسعور متخفيا في ثياب الملائكة، وبعدما نال غرضه هجرها مع امرأة لعوب، وأصبح لا يفارق «**فاتن**» يصتحبها بدلًا منها في كل مكان، كانت صورة غريمتها أمامها مطبوعة في ذهنها، ماذا تمتلك أكثر منها في عالم الأنوثة، صدرها مشدود، وشعرها أصفر، وزيها الشفاف، لم تكن أجمل من «**ليلى**»

علي الفور قررت تغير من مظهرها، غيرت لون شعرها إلى نفس اللون، ثم استخدمت كل أدوات تكبير وشد الصدر، أعادت الاطلاع على كتب الإتيكيت من جديد، ما كاد يمر شهر حتى أصبحت كنجمات السينما، أضافت إلى نفسها رونقًا وعبقًا من نوع جديد، وأصبحت تتصرف بطريقة أكثر تأثيرًا.

هذه المرة تتجمل وتبالغ في التجمل من أجل الانتقام من

ذلك الوغد، ترسخت عندها عقدة الانتقام،من كل الرجال، وبصورة أكثر وأفظع من ذي قبل، فطالما فشل حلمه في رجل يقدسها وتقدسه، طالما تعذر على الحلم أن يولد، أقسمت لتهلكن باللظي كل المخادعين، أقسمت أن تجعل من نفسها بؤرة عذاب تحرق الكاذبين، ترى هل تنجح في ذلك؟

ما كاد يمر الشهر حتى التقى بها «**فتحي شهدي**» من جديد أخذ ينظر إليها بنهم، لم يصدق أنها «**ليلى**» تحولت إلى امرأة أخرى، حسنها فاق كل الحسناوات، بدأ من جديد يلاحقها على الموبايل في كل مكان وهي لا تعيره أي اهتمام، سعادتها تزداد كلما أشعلت صدره بالشوق، لم يكن لديها متعة سوى إذلاله في غياهب الرغبة، ثم تتركه معلقًا في الهواء.

في الوقت نفسه بدأ «**ناجي**» يسعى للعودة، والزواج منها وردها إلى عصمته مرة أخرى، فهو مازال متعلقًا بها، بدأ يرسل إليها صديقتها «**رجاء**» تارة،وأختيها تارة آخرى، وهي تستلذ بعودته إليها صاغرًا مرة أخرى، كانت المماطلة تشكل نوعًا من الانتقام.

ومع كثرة الإلحاح، وجلسات المناقشة، والحوار، بدأت تستعذب الكلام، فعودة «**ناجي**» تؤكد أن الحب موجود، وربما يكون قد تغير، في أعماقها رغبة في أن ينتصر ربيع الحب، مرة أخرى انقسمت بين رغبتين متناقضتين، رغبة الانتقام، ورغبة المصالحة مع النفس، وفي لحظات الصفاء عندما تعود لرشدها، تقول لنفسها «**ناجي**» أفضل من كل الرجال الذين تعاملوا معها، على الأقل طرق الباب الشرعي كي ينال رغبته منها، ودليل حبه أنه لم يتزوج بأخرى رغم مرور الأعوام.

على مضض وبتردد، وبعد أن تعهد بأن يتركها تعمل وتلبس ما تشاء من ثياب، وبلا غيرة، قبلت للخلاص من عذاب الوحدة، وطار خبر عودتها يملأ أرجاء الدنيا.

علم «**فتحي شهدي**» بالأمر، جن جنونه فهو مازال يريدها، وهي لا تلقي له بالاً. ذهب إليها في المكتب وهددها بورقة الزواج العرفي، وإذا تزوجت سوف يرفع عليها قضية الجمع بين زوجين، اشتد غيظها وحقدها، سيضعها ذلك الوغد في موقف بالغ السوء مع أسرتها، ماذا ستفعل لكي تخرج من هذا المأزق؟ يطاردها في كل مكان، وسمعتها سوف تتأثر إذا أعلن أنها متزوجة منه عرفيًا، كان هذا الأمر وقتها عارًا كبيرًا. أصبحت في حالة نفسية يرثى لها، ماذا ستقول لـ «**ناجي**» إذا علم بالأمر، ظنت أنها تفر من الوحدة عندما قبلت أن تعود، كانت تتمنى الهروب من لحظات الفراغ القاتلة، بيد أن «**فتحي شهدي**» كما خدعها باسم الحب جاء اليوم ليدمر مستقبلها بورقة عرفية.

١٧- التحول

أحيانا يخط القدر تاريخًا جديدًا، وتتبدل الأحوال، وهذا هو «**سامي السلاموني**» تغير من حال إلى حال، فمنذ أن رفضت «ليلى» الزواج منه، وهو يتخبط في سلوكه، في البداية حاول أن ينسى صدمة الرفض بمزيد من اللهو، ومر الشهر تلو الشهر دون جدوى، كان قلبه معلقًا في أوداج الهوى، وبعقله الباطن يراجع كل ما مر به من أحداث، كان يرى عمره الفارغ يمر أمام بصره كشريط سينمائي، فيخجل من نفسه كلما تذكر هفواته، وبعد طول تفكير تيقن أن المال قد يشتري الضمائر، ولكنه لايشتري القلوب.

ورويدًا رويدًا بدأ يفكر في الحياة بعمق، وحتى يهرب من محرقة الأفكار، أخذ يقرأ لعله يجد السلوى، أو يجد ما يجعله يحيا بدون ألم، ومع الوقت لمس في الكُتب أطراف الحكمة، فراح يقارن بين واقعه، وبين واقع الآخرين، وظل طيلة عام متأرجحًا بين الاستسلام لفكرة الضياع، وبين الأمل في تغيير ذاته، فكر في كل ما حوله، شغله مصدر ثروة أبيه، كره المال الحرام، وسلبية أمه، وجشع خاله، تأكد من أن استهتاره كان ميراثًا حتميًا، فدفعته شدة المعاناة إلي أن يزيح الزيف عن عقله، ويرى الدنيا بعيون جديدة.

كان يمشي هائمًا في الشوارع والأحياء الشعبية، ويجلس علي المقاهي، ليراقب الآلام في عيون البشر، شعر بهمومهم، دفعه الفضول إلي زيارة مراكز علاج الإدمان، وعندما شاهد مآساة المدمنين، لعن كل الثراء المسروق من أعمار البشر، كره ما مر من عمره، وهو يحتسي من أموال أبيه المعجونة بدماء المقهورين.

قرر أن يعتمد علي نفسه ويهجر بيت والده، وفي البداية ظنت أمه أن المس قد أصابه، وخاصة عندما رفض التعين بالنيابة

العامة، بعد توصية من خاله، وأصدقاء أبيه، وزادت الحسرة في قلبها عندما قرر أن يعمل في مكتب محاماة، ويعتمد على نفسه، حاولت منعه:

- **الأم:** هل جننت ياولدي.

- **سامي:** بل رد الله علي عقلي، أموالكم الحرام كالشوك مغروسة في عمري، إنها مسلوبة من أقوات البشر، دنياكم كلها كذب، ونفاق، وأنا سئمت من هذا النفاق، أريد أن أحيا حياةً نظيفة، بدون كذب أو غش أو خداع.

- **الأم:** كل ذلك التحول بسبب ليلى؟، من أجل امرأة لا تساوي شيئًا تصف حياتنا بأبشع الأوصاف؟

- **سامي:** لا يا أمي، بل من أجل الحقيقة، أريد أن أطهر نفسي، لقد كرهت حياتي الفارغة، يجب أن أعمل، وأعتمد على نفسي.

- **الأم:** طالما تريد أن تعمل! سوف أفتح لك شركة مقاولات.

- **سامي:** بأموال المخدرات؟

- **الأم:** بل بأموال جدك، كان رجلا كادحًا.

- **سامي:** نعم يا أمي كان كادحًا، ورغم أنه كون ثروته من جمع القمامة، ولكنه لم يسرق أو يتاجر في المخدرات، ربما كانت له بعض أخطاء، ولكن كان عصامياً، يا أمي أنا خجول من سيرة أبي.

- **الأم:** لا تكن حادًا هكذا.

- **سامي:** أنا أقول الحقيقة، وسوف أبحث عن أي عمل.

- **الأم:** مادمت مصممًا، من الغد سوف أقوم بتكليف المحامي بإجراءات تاسيس شركة للمقاولات والاستثمار العقاري، ومن أموال جدك.

- **سامي:** من أموال جدي، حسننا اتفقنا، فقط أعطيني فرصة حتى أصلح شيئًا قد أفسدته؟

- **الأم:** ماذا تعني؟

- **سامي:** فتاة غررت بها باسم الحب، كنت قد تزوجتها زواجًا عرفيًا، ووعدتها بالزواج الرسمي، وغدرت بها، كنت سافلاً معها يا أمي، لقد مَزقتُ ورقت الزواج العرفي، بعد أن حملت مني، وعرفت بعد ذلك الجرم أن المسكينة هربت من أسرتها خوفًا من الفضيحة، وتركت الجامعة وهي بالفرقة الرابعة بكلية الحقوق، ضاع مستقبلها بسببي، لقد قتلت «**شهد**» باسم الحب يا أمي.

كانت «**شهد**» فتاة رقيقة شديدة الجمال، متوسطة الطول، متناسقة الجسد، بيضاء البشرة، عيونها زرقاء، وشعرها ذهبي، أما في تكونها العاطفي، فكانت رومانسية، الكلمة العذبة مفتاح قلبها، بيد أن عورتها أنها فقيرة، وأبوها مكوجي، ويقطنان في حي شعبي «**بدار السلام**» وظل «**سامي**» يطاردها، ويغازلها لمدة ثلاث سنوات، جرب معها كل الأساليب، ولكنه فشل في غزوها، بعدها جرب الرومانسية، فظل يمطرها بالكلام المعسول تارة، وبعذب الحديث تارة أخرى، إلي أن تمكن بهمس

الحب أن يغزل شباكه حولها، وصدقت المسكينة أنه يحبها، وبعد طول سجال أقنعها بالزواج العرفي لحين تدبير الأمور.

كانت الفتاة عاطفية، لذا جرت وراء الأوهام، وبعد أن ظنت أن في السراب ماءً؛ سقطت علي ضفاف الحب الكاذب، وظلت تلتقيه قرابة نصف عام في شقته الفاخرة بشارع «**الملك فيصل**» وكالعادة حدث مالا تحمد عقباه، بأن اكتشفت المسكينة في نهاية الشهر السابع أنها حامل في طفل منذ ثلاثة شهور، رجتها الصدمة رجًا، فطلبت منه الزواج الرسمي حتى لا تُفضح، ولكنها ظل يماطل لمدة شهر، وفي الشهرالتالي سرق منها ورقة الزواج العرفي ومزقها، وتملص من كل وعوده، وأخبرها بضرورة الإنفصال، لأنه لا يثق بامرأة فرطت في نفسها ولو بزواج عرفي قبل الزواج الرسمي؛ حتى وإن كان هو ذلك الرجل، وكدأبه أخرج لها شيكًا بعشرين ألف جنيهًا، وذلك ثمن لهوه بها؛ وكي تتدبر حالها.

نظرت الجريحة نحوه نظرة استجداء تعاتبه، فلم يقو على النظر في عينيها، أدار عنها وجهه الكالح بخسة ونذالة، فشعرت بضآلة قدرها، هطلت الدموع من عينيها كالسيل، وانحنت تقبل حذاءه حتى يرحمها من العار، ولكنه بصلف الفاجر ركلها بقدمه كأنه يركل خنزيرًا.

نهضت تتوسل إليه مرة أخرى، فمد يده نحوها بالشيك، فأخذته ومزقته وقذفته به في الهواء فانتشرت شظاياه في الهواء محملة برجس الخطيئة، ثم استدارت إليه، ونظرت نحوه بغيظ، وبحرقة المكلومة، هوت بيدها تصفع وجهه، وانحنت تخلع حذائها، وتصرخ بهستريا، وتنهال به فوق رأسه، كان صوتها العالي يشق الفضاء، كانت صرخات المفجوعة تخبر الدنيا بمصابها، فتجمع بعض الجيران، ودخل البواب يستطلع الأمر، ففهم أن هناك خلاف حاد، وفهم الأمر، فقد كان قوادًا، يمد

المارق ببعض الفتيات من آن لأخر، فتدخل وجذب الفتاة من شعرها إلي الخارج، حتى طردها خارج العمارة، حدث كل ذلك وسط ذهول الحاضرين، الذين كانوا ساخطين عليه، لسوء سلوكه، ولكن خوفهم من بطش عائلته ألجم الأفواه.

كانت تلك الواقعة، وغيرها من الأحداث المؤسفة في ذهن الفتى كالثعابين تلدغ في وجدانه، فيدفعه الشعور بالذنب نحو البحث عن «**شهد**» بكل قوة، وأخيرًا بعد شهرين من البحث المضني عثر عليها، ووجدها تعمل ممرضة مع إحدى الطبيبات بمستشفي خاص. أنحني يقبل يديها، كان يعتذر باكيا عما بدر منه، وبعد عتاب طويل؛ غسل الهموم من روح الفتاة، وسر عندما علم أن المولود بنتًا، اسمتها أمها «**أمل**» وعلى فوره أخذها إلي أقرب مأذون للمصادقة علي الزواج رسميًا، ثم اصطحبها وابنته إلي أمه، التي قابلتهم في أول مرة بفتور شديد، ولكن الصغيرة أذابت جبل الجليد بين الجميع، وبثت جوًا من البهجة لم تشهده من قبل.

كان أبوه «**السلاموني**» رافضًا لهذه الزيجة، ووصف ولده بالجنون، وزادت القطيعة بينهما عندما استقل عنه «**سامي**» وانتقل إلى فيلا بأول طريق مصر إسكندرية الصحراوي، وفتح مكتب لشركته بالطابق الأول، وعاش مع أسرته بالطابق الثاني، بأموال جده، أما أمه فظلت متأرجحة بين ولدها التائب، وبين زوجها الضال، دون القدرة علي حسم أمرها، وهكذا ظلت حائرة، كمن تجمدت قدميها في منتصف النهر، لا هي بالغارقة، ولا هي بالناجية.

١٨- الهرم المقلوب

ما تعانيه «**ليلى**» أن عالمها يعج بالانتهازيين، تغير البشر مع الزمان،والمكان، أصبح «**حسين**» بائع السميط من كبار رجال المال، ورغم أنه كان يرتدي أفخم الثياب، إلا أن ذوقه كان منفرًا، فألوانه فاقعة غير متناسقة، وعادة كان بدله حمراء فاقعة، أو خضراء، أو ملونة علي هيئة مربعات ملونة وكبيرة، كملاية السرير، يرتدي ساعة ذهبية كبيرة، وفي يده عدة خواتم فضية غليظة، وركب بأسنانه الأمامية تيجان من الذهب، كان طوله الفارع ونحالة جسدة تجعله أقرب إلي الأرجوز، فقد نجح سليل «**الدويقة**» في تجارة المخدرات أشد ما يكون النجاح، وأصبح الذراع الأيمن «**للسلاموني**» بعد إقصاء «**بشندي**» من الساحة.

ولكن تاريخ أبيه مازال يطارده، وكلما تذكره خجل منه، فقد جاء «**عنتر**» والده من الفيوم بعد أن ضاقت به الدنيا، ليسكن «**الدويقة**» كان الأب سمينًا بلا شارب، صوته أجش، وأسنانه سوداء من كثرة شرب «**الشيشة**» يرتدي جلبابًا مهللاً، ولم يكن يمتهن أي حرفة سوى مهنة قص شعرالحمير والبغال في قرية «**العجميين**» التابعة لمركز «**أبشواي**» بمحافظة «**الفيوم**» وبعد أن كسدت مهنته، وتقلص عدد الحمير بسبب دخول الآلة في مجال النقل؛ جاء إلى إلي «**الدويقة**» بضواحي «**القاهرة**» فارًا من الفقر، ولم يجد سوى مهنة الحلاقة، في مثل هذا المكان العشوائي، وكانت تلك المهنة الجديدة لا تتطلب منه سوى أن يفترش الرصيف بمقص وشفرة، وماكينة الحلاقة ليمارس مهام عمله مع البشر بدلا من الحمير.

ربما لا يوجد فارق كبير بين قص شعر الحمير، وشعر الكادحين المقهورين من أفراد تلك الشريحة، ربما كان أصحاب الحيوانات يعتنون بها أكثر من عناية المجتمع بهذه

الطبقة المغلوبة على أمرها، الكثير من الرؤوس التي يحلقها عنتر مليئة بالحشرات، وبعضها يفوح منها روائح لا تطاق.

أما أمه «**حسنات**» كانت رفيعة، وطويلة، شعرها مجدول حتى خصرها، عيناها واسعة، رشقية، رغم علامة البأس التي تكسو ملامحها كانت جذابة، وكانت تعمل «**بلانة**» تزيل الشعر الزائد في أجساد بعض نسوة «**الدويقة**» قبل زواجهن، وربما كانت تلك المناسبة الوحيدة التي تعتني بها المرأة بجسدها في هذه المنطقة البائسة.

أما حماه «**سندس**» أبو «**فلة**» بائعة الفل سابقًا، لم يرث هو الآخر سوي البؤس، كان رجلا ربعة، ذو شارب طويل، دائما ما يربط رأسه بمنديل كبير، كان كلاف يطعم مواشي العمدة في قرية "**كفر ابوزيادة**» مركز «**دسوق**» بمحافظة «**كفر الشيخ**» وعندما تلاشت الأراضي الزراعية وانهارت الثروة الحيوانية جاء إلى «**الدويقة**» ليعمل عربجيًا ينقل روث مزارع العجول، أما زوجه «**كريمة**» فكانت شديدة البخل، سمينة، وتعمل بائعة متجولة، تفترش قارعة الطريق، ومعها صنية عليها بعض الحلوي، ولعب الأطفال، وعندما تزوج «**حسين**» بـ«**فلة**» ابنت سندس، كان هذا الزواج هو الخلاص لهذه الفئة المطحونة من الفقر.

أما «**فلة**» فكانت رشيقة، كثيرة الكلام، والدلال، طمس الجهل جمالها، تعودت أن تمضغ اللبان بشراهة، وتفرقع به في فمها بصوت مسموع، وتحرك حاجبيها عند الحديث، وتمصص شفتها، وسبابتها عندما تعترض بطريقة ملفتة للنظر، أما زيها ففاقع يجسم جسدها المثير للشهوة، والمزروع بالذهب في الرقبة، واليدين.

وكانت ذروة اقتراب «**حسين**» من «**السلاموني بيه**» في الانتخابات البرلمانية، هو ما يسر له دخول عالم الكيف من أوسع أبوابه، دوره في البداية كان جمع البلطجية، وعرقلة وصول الناخبين المؤيدين للتيارات المعارضة إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم،

والآن أصبح أمين العمال بالحزب الكبير.

وعندما أراد «**حسين**» أن يغسل أموال المخدرات قام بشراء مدرسة دولية للغات بمدينة ٦ أكتوبر ،وأوكل لـ«**فلة**» زوجته بائعة الورد ابنة كلاف العجول مهمة الإشراف عليها، ورغم حصولها على «**دبلوم تجارة**» ضمن برنامج محو الأمية مازالت لا تجيد القراءة والكتابة.

وبعدها اشترى لها «**حسين**» شهادة جامعية من لبنان، وأصبحت رئيس مجلس إدارة المدرسة، أما مهمة إدارة المدرسة فهي تحت إشراف إحدى المتخصصات دكتورة «**منال الطيب**» وإن كان ذلك يتم بصورة شكلية، فالأمر كله بيد «**فلة**» أما «**حسين**» فكان الممول.

أغرب ما كان يحدث هو حضور الكلاف وحلاق الحمير اختبارات المدرسين الجدد لكل عام دراسي جديد، كانا يستمتعان برؤية خريجي الجامعات وهم منكسرون؛ من أجل الفوز بفرصة عمل عند بائعة الورد، وزوجة تاجر المخدرات.

في الوقت نفسه كان «**سيد**» ابن «**جاد**» أفندي وابن خالة «**ليلى**» قد حصل على شهادة الدكتوراه وأعد مشروعًا بحثيًا يحقق الاكتفاء الذاتي من القمح، أنفق فيه كل أموال أبيه وإخوته،ولكن لم ينل المشروع أي اهتمام، بل هو نفسه لم يجد فرصة عمل، بعد طول يأس قرر أن يعمل مدرسًا، فساقه القدر نحو مدرسة بائعة الورد.

استقل سيارة أجرة من «**دار السلام**» حتى الجيزة، ومنها استقل سيارة أخري كي يذهب لتقديم أوراق تعيينه بمدينة«**٦ أكتوبر**» بمدرسة بائعة الورد، وحضور الاختبار، ركب بجوار السائق الذي فتح المذياع علي نشرة الأخبار، أخذ يتابع مايبث بفتور إلي أن شد انتباهه قرب نزوله مايلي:

صوت المذياع: تظاهر ألاف الفلسطنيين اعتراضًا علي قرار إسرائيل بإنشاء الجدار العازل علي الأراضي العربية المحتلة بالضفة الغربية بعد عام ١٩٦٧م، لأنه سوف يؤدي إلي الفصل بين العائلات الفلسطينية عن بعضها البعض، وفصل المزراعين عن أراضيهم، والعمال عن أماكن أعمالهم، وبذلك سوف يقطع هؤلاء عشرات الأميال للوصول إلي مقاصدهم بعد أن كان ذلك لا يستغرق سوي بضع دقائق، وطالب المتظاهرون بإيقاف بناء جدار الفصل العنصري.

وأخذ «**سيد**» يكلم نفسه بصوت داخلي:

- متى يعم السلام فوق كل الأراضي العربية؟، بل متى يعم السلام في ربوع العالم بأثره؟، ياربي لقد كرهت العنف والتسلط، وأحببت السلام والعدل، كرهت التمييز بين البشر علي أساس الجنس، أو العرق، أو الدين، أو المال، أحلم بالعدالة التي تذيب كل الفوارق الوهمية بين بني الإنسان، هل لهذا الحلم أن يرى النور يوما ما؟

هبط «**سيد**» من «**الميكروباص**» وعبر الشارع، فوجد أمامه سياجًا خراسانيًا مرتفعًا يقترب ارتفاعه من ثلاثة أمتار، وطوله لا يقل عن خمسة كيلومترات، يطلق عليه «**الكمباوند**» ويفصل بينه، وبين المدرسة التي يقصدها، وحتى يصل وجب عليه أن يترجل حول السياج العتيق، وعلي بعد خطوات شاهد بوابة كبيرة عليها حراسة مدججة، لتأمين سكان هذا المنتجع الكبير، تذكر تفاصيل المكان قبل بنائه، فقد كان هناك طريقًا يمر من وسط «**الكمباوند**» نحو الشارع الذي توجد به المدرسة، ولكن هذا الطريق أصبح مغلقًا بعد أكتمال البناء، ضرب الهم رأسه، لأنه سوف يمشي كثيرًا علي قدميه بسبب هذا البناء، استجمع الفتى

قواه، وشد نفسًا عميقًا ونظر نحو قرص الشمس يدعو الله ألا يحجب نوره ببناء جديد يفصل بين السماء والأرض.

كانت لجنة اختيار المعلمين بالمدرسة مكونة من المديرة وبجوارها «**فلة**» تفرقع باللبان من آن لآخر، ثم تنفخه خارج فمها فيبدو كبلونة صغيرة، وعلى الجانب الآخر يجلس أبوها «**سندس**» و«**عنترة**» أبو زوجها، تلك هي اللجنة المنوط بها تقرير صلاحية المدرس، أما دور المديرة هو طرح الأسئلة، ووضع الدرجات. لم يكن لعملها المهني أي أثر في الاختيار.

الكلاف يحرص على اختيار الخريجات اللاتي ترتدين ملابس شفافة، وحلاق الحمير يختار السيدات البدينات، ربما كانت لجنة التعيين أشبه بلجان اختيار نساء الليل، لم ينل الدكتور «**سيد جاد**» القبول، رغم حصوله على أعلى الدرجات العلمية، المديرة في حالة هياج وغضب، وتحاول كبت مشاعرها حتى لا تغضب أصحاب العمل، فمثل هؤلاء كانوا ذائعي الصيت، بل إن بعض كبار المسئولين كانوا يحضرون لزيارة المدرسة تلبية لدعواتهم، وأحيانًا يحضرون المناسبة العائلية الخاصة بهم، المديرة تحت إغراء المرتب كانت لا تعلق على قراراتهم، فراتبها يفوق أجر مثيلاتها في هذا المجال بعشرات المرات.

القانون في مدرسة هؤلاء انتقائيًا، فتحديد المرتب يكون حسب الوسط الاجتماعي للمدرس، هل هو من طرف المسئول فلان الذي يمكن الاستفادة من خدماته الآن أو فيما بعد، أو من طرف صحفي لامع أو نجم مشهور، فيما عدا ذلك كان المدرسون كعمال اليومية أجورهم لا تكاد تكفي المصاريف الشخصية، طاقم التدريس معظمه من السيدات، ومعظمهن لا تكمل العام الدراسي في مدرسة الكيف، نتيجة تصابى حلاق الحمير أو عدوانية كلاف المواشي.

خرج «**سيد**» من الاختبار وهو يعلم أن الدنيا قد سُرقت منه، شعر

أن كل الطرق قد أغلقت أمامه، لم يكن وحده هكذا، بل كسدت صناعة «**عبود بيه**» فأوقف المصانع وقام بتصفيته، لم يعد قادرًا على العمل الجاد.

أما «**كمال عمر**» ابن قرية «**الدلجمون**» بمحافظة «**الغربية**» فقد انتقل للعمل بالقاهرة، بعدما تعثر تعيينه بالنيابة العامة؛ ليعمل موظفًا بوزارة «**الحكم المحلي**» بمبنى **محافظة الجيزة**، ورغم كفاءته بالعمل، لم تتم ترقيته لأي درجة عليا، تزوج زواجًا تقليديًا، ويقطن مع أسرته بحي «**أرض اللواء**» أما شخصيته فقد ظلت كما هي دون تغيير، بل إزداد خلقه حسنًا، كسب حب الجميع عدا النافذين، فكان مبغوضًا منهم؛ لأنه لا يسكت عن خلل يراه قط، وظل في جحافل المسحوقين كما العادة.

أما «**ليلى**» فمازالت تجاري بعض الأثرياء الجدد، تارة تتصنع الابتسامة، وأحيانًا تتحمل عبارات جنسية فظة، وأحيانًا كانت توبخ نفسها، فمثل هؤلاء من تدافع عنهم في المحاكم، وتجد لهم ثغرات قانونية للهروب من العدالة.

كانت ترى زميلها «**سامي السلاموني**» من فترة لأخرى، أسعدها خبر تبدل حاله إلى الأفضل، شعرت بأنه يستحق الاحترام، أثلج صدرها بموقفه من «**شهد**» عندما استيقظ ضميره، ما يزعج «**ليلى**» أنها تقف في نفس المكان الفاسد الذي كانت تكره أن يقف فيه أحد، وكلما قابلت «**سامي**» وتبادلت معه الأحاديث؛ شعرت بوخز الضمير، فهي تريد العودة لفطرتها السوية، وهناك شيئ ما يجذبها إلى الماضي.

كان هذا أيضًا من أسباب شقائها، أنها ترفض أن تعيش على فتات المال الملوث، بئس بقايا موائد اللئام، تشعر بأنها قد انضمت إلى قوافل الجرذان، الذين يلعقون فضلات اللصوص، كان هذا الأحساس يمثل ضغطًا نفسيًا عليها، وكثيرًا ما شعرت

بأنها شريكة لهؤلاء في هدم المجتمع، كان وخز الضمير لديها أشد من طعنات الخناجر، هذا العالم جعلها لا تتذوق لذة الحياة، تحس بمرارة في الماء، والطعام، فهي بقلبها مع المسحوقين، وبقلمها ومذكراتها القانونية في معسكر الساحقين، كانت تبرر لنفسها قبول قضاياهم؛ بأنها لو رفضت قضية سوف يقبلها الآلاف، فبدون هؤلاء ستغلق مكتبها إلى الأبد، ولن تجد ما تنفق منه، بدأت تفكر بجدية في هجر تلك المهنة، ولكن ماذا تعمل، ربما كان هذا الشعور من أسباب قبولها العودة لـ«**ناجي**» لناجي مرة أخرى، بيد أن القدر يعاندها، ولا تدري ماذا تفعل؟

١٩- المعضلة الكبرى

تحكي «**ليلى**» لـ «**رجاء**» ابنة خالتها كل كبيرة وصغيرة، يجمعهما نوع من المصارحة غير العادية، فتسرد عليها تفاصيل ما يحدث وخصوصًا علاقتها بالرجال، وكيف تعاملهم، وتخرج معهم دون تحفظ، كانت «**رجاء**» ترفض انفتاحها بهذا الشكل على مجتمع الرجال، وخاصة أن العلاقة بين الرجل والمرأة عادة ما تفضي إلى الوقوع في المحظور. تستمع منها ثم تنهال عليها بالنقد تارة، وتارة أخرى تحسدها على شجاعتها في اقتحام هذا العالم، والغريب أنها كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تقلدها.

وبين النقد المباح والأجوف، كانت «**رجاء**» منقسمة على نفسها نحو نوعين من الأحاسيس، الأول هو الحقد الكامن بداخلها؛ نتيجة النجاح المادي لـ«**ليلى**»، فهي لا تقل عنها في مستوى الذكاء ولكنها ما زالت موظفة بالحكومة، مرتبها هي وزوجها لا يكاد يكفي المصاريف لآخر الشهر، أما «**ليلى**» تنطلق في عالم النجاح المادي بسرعة تجعلها تحقق كل ما تريد، لديها حساب كبير في البنك وأكثر من شقة فاخرة، وسيارة حديثة، وملابس كلاسيكية، كانت تشعر أمامها بالعجز، وتحاول أن تخفي ذلك كله بابتسامة صفراء، فعلى الرغم من سخاء «**ليلى**» معها، والإغداق عليها بالهدايا، والأموال إلا أن الرواسب كانت تتصاعد بداخل «**رجاء**» أما الشعور الآخر فهو «**الغيرة**» القديمة، منذ أيام الجامعة، وكيف كان الشباب يسارعون لخطب ودّ «**ليلى**» دونها، كان هذا الإحساس يفجر بركانًا داخليًا لا حدود له، وعندما تحاول السيطرة عليه دائمًا تفشل، غيرتها تنمو وتكبر مع كل نجاح تحققه «**ليلى**».

لم ترَ «**رجاء**» سوى الشكل، والمظهر الخارجي لصديقتها، لا ترى آلامها، ووحدتها، الثراء المزيف لم ينقذها من فقر المشاعر، كثرة الهائمين بها لم تنتشلها من الوحدة، مازالت

تعيش وحيدة مع أحلام لم تتحقق، إنها لم تستقر بعد،وتتخبط في الفضاء الفسيح، وعندما تعود إلى شقتها تشعر بأن الثواني تمر عليها كأنها الدهر، يصيبها الملل، ولم تعد وسائل الترفيه الحديثة من تليفزيون، ودش، وكمبيوتر قادرة على ملء الفراغ بروحها، لم يكن أحد مطلقًا يشعر بتلك الجوانب الخفية التي تمثل أطنانًا من الأثقال تجثم فوق صدر المقتولة في قلبها، الجميع لايرون سوى المظهر الخارجي المنمق، النساء تحسدها وتحاول انتقادها، والرجال تحاول اقتناصها. و«**رجاء**» مثلهم وأكثر تخفي تلك المشاعر المتضاربة، وتجبر نفسها أحيانًا وهي تستمع إلى مغامراتها على النفاق والثناء عليها.

لم تدرك «**ليلى**» أو تلاحظ شيئًا من ذلك، وكانت وفية لأبعد الحدود مع من تصادق، تلك الخصلة النادرة تميزها، تمتلك قدرة نادرة على الوفاء الحقيقي تجاه من تحب، الأيام تمر وكل خطوة تتقدمها تزداد مقابلها الغيرة في أعماق «**رجاء**». هكذا النفس البشرية متمردة وجحودة وحاقدة في أحايين كثيرة، «**ليلى**» تعاني من القلق بسبب الوحدة، وهذا الأمر يفقدها التركيز،ويدفعها للتدخين أحيانًا أو شرب الكحوليات، تريد الهروب من ذلك الإحساس القاتل بقتل خصال نبيلة، أصبحت بقايا نفس محطمة، لا تدري كيف تعيش مستقرة، أحلامها المادية سببًا في الشقاء، وخاصة عندما فشل «**ناجي**» في احتوائها في بداية الزواج.

كان من الممكن أن تتغير حياتها لو صبر عليها حتى تنجب أول مولود لها، للأمومة مفعول السحر في قلوب النساء، كان يمكن أن يتحول هدفها إلى اتجاه آخر، فعادة ما تنسى الأمهات والآباء مشاريعهم الشخصية من أجل الأبناء، لم يكن «**ناجي**» محنكًا، ولم يتفهم طبيعة شخصيتها، لو أمهلها حتى تنجب ما غرقت في تلك المأساة، الوحدة القاتلة لا تشفيها كل كلمات الإعجاب والثناء، كل ذلك لا يستطيع أن يطوي الدقائق الطويلة، وحتى تقتل ظلمة المساء حاولت الاندماج في العمل

النقابي، كانت تحضر العديد من الاجتماعات والندوات، كل ذلك لم يحقق لها شيئًا من الاستقرار.

تسمع وترى الكذب الاجتماعي، والنفاق ظاهرة تغلف الأقوال، والخطب الرنانة جوفاء، على غرار ما يطرحه بعض السياسيين، بدأت تشعر بالضجر والضيق لدرجة الاختناق، في العمل العام كانت عيون الرجال تلاحقها، ترمق تفاصيل جسدها في رغبة محمومة، والنساء تغار من جاذبيتها، بيد أنها قررت بحضورها تلك المناسبات أن تفسد على الكاذبين كل خططهم، تكشَّف لها أن هؤلاء الرجال مزدوجو الشخصية، يتشدقون بكل المعاني النبيلة، ولم يكن معظمهم سوى لصوص أو منافقين، ميزة مهنة المحاماة أنها مرآة تطل منها على المجتمع، فترى الحقيقة خلف الكذب، وهي نفسها مثلهم كانت جزءًا من النفاق، بعض الأسماء الكبيرة والرنانة في عالم المال تركع تحت قدميها من أجل حلم بليلة ساخنة، وهي تركع تتوسل الأيام أن تمنحها الاستقرار.

وعندما يستبد بها اليأس تنتقم من الرجال الكالحين شر انتقام، تترك لهم الحبل على الغارب ليحلموا ويصعدوا إلى عنان السماء، ثم تلقي بهم في منحدر الفشل السحيق، تسعدها متعة الانتقام بعد أن كفرت بالحب، وكانت سلوتها الوحيدة للفرار من الوهم؛ قهر الرجال الكاذبين الذين يقضون الليل مع زوجاتهم وهم يتشدقون بالحب، والشوق، وهم في حقيقة أمرهم مخادعون، ولا يحبون إلا أنفسهم، وعالم اللحم الرخيص، هكذا رأت «**فتحي شهدي**» و«**سمير طايع**» وغيرهم. قدرها أن الأفاقين قتلوا فيها الأمان، كانت كالذبيحة فوق وديان الأوجاع، بريق الذهب، وصليل المال لا يمنحان القلب الشريد مبتغاه من السكينة، وأين تهرب من الصخب لتنعم بالراحة.

طعنات الغدر في الأيام القاحلة جعلتها تقص على «**رجاء**» مأساتها الجديدة، وكيف أن سمعتها مهددة بالانهيار بسبب

ذلك الوغد «**فتحي شهدي**» الذي يريدها غانية، وفتاة ليل تبيع نفسها العزيزة بثمن بخس، علمت أن غرضه من الاحتفاظ بورقة الزواج العرفي هو إرغامها على علاقة جنسية وقتما يشاء، حتى لو تزوجت «**ناجي**»، قصت على «**رجاء**» سرها لعلها تزيح همها أو تجد حلًا، ولا تعلم أن قلب من تسمعها يقطر سُمًّا نحوها، كانت «**رجاء**» تشعر بسعادة داخلية كلما أحست بلوعة «**ليلى**». والذبيحة تعتقد أنها تفضفض عن نفسها مع صديقتها الوفية، لم تثق بأحد تفرغ معه ما يجول بصدرها من آلام سواها، التقطت «**رجاء**» الكارثة كمن ينتظر الفرصة للانقضاض على خصمه اللدود، وحولتها إلى فضيحة كبرى، ذهبت إلى أخوات «**ليلى**» وقصت عليهم الأمر، صورتها بأنها مستهترة ومتصابية ولا تجيد إلا الرقص في الحانات.

ما فتئت أسرة «**ليلى**» تعلم الخبر المشئوم حتى جاءت تعنفها على هذا العار، وخاصة أمها «**هند**» ، كانت وفاة أبيها منذ عام تقعدها- حزنًا- عن الحركة، ف«**مراد**» زوجها لا يعوض بكل ما في الدنيا، الأم كادت تفارق الحياة عندما علمت، وخاصة أنها مريضة بالضغط والسكر، الأسرة كلها حضرت في شقتها، وانهالوا عليها بإطلاق أقصى أنواع النقد.

كانت النظرات تصوب نحو «**ليلى**» كالشرر، فيندفع الزفير من صدرها كأنه ريح صرصر عاتية، وكانت تُسمع للقلب دقات كأنه يطلق الرصاص من بندقية آلية، تولدت بداخلها طاقة محرقة، وميضها كالجمر يشوي الأكباد، كانت تصرخ بصوت مكتوم لن تسمعه سوى المكلومة بجرحها، وعندما تخلد للصمت هربًا من ملاحقة العيون؛ تتقلب على وخز الضمير كأن الهواء نسيج من شوك أو ريح السموم.

صرخت في وجوههم وطردتهم من الشقة، تأزم الموقف وخرجوا ناقمين عليها، وقرروا استدعاء أخيها من الكويت لكي يقف في وجهها، ويكبح جماحها حتى لا تلطخ سمعة

العائلة، وجدت نفسها محاطة بحصار رهيب، لم تكن تتصور أن «**رجاء**» سوف تفتشي سرها، اكتشفت خلال التشاحن مع إخوتها وأمها أن أسرارًا عديدة نقلت إليهم، لقد خانت «**رجاء**» عهد الصداقة، الجو المشحون بالغضب سوف يشتعل من جديد بعودة أخيها من الكويت ، ماذا ستقول له؟ وكيف ستدافع عن نفسها، هل سيتفهم حقيقة الأمر؟.

هل سيعتبرون أن الحرية التي منحت لها كانت خطأ كبيرًا؟ وماذا لو علم «**ناجي**» بالأمر؟ إن الزواج العرفي أحيانًا هو الواجهة القانونية لارتكاب الخطيئة، «**ليلى**» تشعر بدوار وغضب، هي محاصرة من الجميع، من الرجال الذين يريدون اقتناصها كأنها امرأة ليل، ومن النساء اللواتي تغرن منها.

والجديد في هذا اليوم، هو انهيار أسطورة الصداقة أيضًا، فلا حب ولا صداقة ولا أمان، تأزمت نفسيًا بصورة أكبر مما كانت عليه، أصبحت فاقدة التوازن والوعي، فجأة دق هاتفها المحمول،نظرت على الشاشة فإذا بـ«**فتحي شهدي**» على التليفون، قررت أن تلعب معه معركة الدمار الشامل استجمعت قواها وذهبت تستمع إليه وهو يتكلم بشوق وإباحية، وبدأت في تسجيل المكالمة على هاتفها المحمول.

بعد المكالمة، قررت أن تشعل النار في بيته كما تسبب في إشعالها في بيتها واتصلت بزوجته، وأسمعتها كلام «**فتحي شهدي**»، كانت زوجة هذا الوغد «**فريدة حمزة**» مدللة، وشديد الغيرة، ولا هم لديها سوى الاعتناء بمظهرها، تبحث عن كل جديد من مأكل، ومشرب وملبس؛ لتقتنيه، زادها العز جمالا، ومنحها المال قوة باطشة، تعودت أن تمتلك بالمال كل شيئ، وكانت ترى أن زوجها من بين هذه الممتلكات، فهي وحيدة رجل الأعمال «راضي حمزة»، ذلك الطاووس الذي يكتنز المال بكل السبل، والذي تصور نفسه فوق كل البشر بثروته الكبيرة.

علمت «**فريدة**» بتعدد علاقات زوجها الماجن بالنساء، زرعت «**ليلى**» في حياته نفس الأشواك التي سبق له أن زرعها في بيتها، وما كاد «**فتحي شهدي**» يعود إلى فيلا «**درم لاند**» بمدينة ٦أكتوبر؛ حتى فوجئ بزوجته تستقبله من بوابة الفيلا بالشتائم، أدرك «**فتحي شهدي**» أن جنون «**ليلى**» قد فتح عليه جبهة صعبة، لأن زوجته «**فريدة**» الوريثة الوحيدة لأبيها الذي يمتلك تلالاً من الأموال، وربما تلفظه.

المفاجأة أنها قصت عليه كل كلمة قالها لـ«**ليلى**» في المحمول،لم يستطع «**فتحي شهدي**» الرد، وخرج مسرعًا كالمجنون،وكل ما في عقله الانتقام من «**ليلى**» والتشهير بها، عقد العزم على أن يرسل صورة ورقة الزواج العرفي إلى «**ناجي**» ليدمر المصالحة المنتظرة، يريد الانتصار و«**ليلى**» راحت تبحث عن وسيلة لكبح جماح هذا الأفاق الذي خدعها باسم الحب، ترى من سينتصر؟ النيران التي أشعلتها «**ليلى**» في بيته تستعر، وعلم «**راضي حمزة**» بها، وراح يهدد «**فتحي شهدي**» بأنه سوف يدمره على فعلته تلك؛ فهو يعشق ابنته بجنون. هي وحيدته التي لا يستطيع إغضابها، عاش لها بكل حياته وحرم نفسه من كل متع الدنيا واليوم قلبها يكسر بواسطة هذا الوغد، على الرغم من مطاردة النساء له طمعًا في ثروته لم يكن يستجيب لتلك العاطفة خوفًا على مشاعرها، كانت الخيوط التي تحبكها النساء من أجل الإيقاع به في أتون الحب عديدة ومحكمة، وهو لا يستجيب لها، حب ابنته يملأ الدنيا عليه، واليوم هي معرضة لأزمة عاطفية حادة، «**راضي حمزة**» في قمة الغضب بسبب ما قام به «**فتحي شهدي**»، هدده بإنهاء الأعمال المشتركة ومحاربته في السوق.

الضربة التي سددتها «**ليلى**» كانت قاسية، قرر على إثرها إذلالها فهو يريد أن يفشل عودتها إلى «**ناجي**»، قرر الانتقام منها، وهي علمت أنه سوف يفتح عليها أبواب جهنم، كانت تستعد لتلك المواجهة، لقد طارت أنباء الفضيحة إلى الأسرة فيما عدا

«**ناجي**»، بعد المكالمة ذهبت «**ليلى**» من فورها إلى مكتبها، وأخرجت ملفات «**فتحي شهدي**» وألغت كل المواعيد، وفحصت كل الأوراق بعناية؛ لعلها تصل إلى شيء تهدده به.

وأخيرًا عثرت على بعض الأوراق الهامة، إنه ملف أراضي الدولة التي استولى عليها بوضع اليد عن طريق التزوير، وأقام عليها مدينة سكنية كبرى، أخيرًا أخذت نفسًا عميقًا وطلبته بالتليفون فرد عليها بتحد، إلا أنه فوجئ بأنها سوف ترسل ملف أراضي الدولة إلى الرقابة الإدارية، إذا لم يرسل لها ورقة الزواج العرفي فورًا.

هنا أدرك «**فتحي شهدي**» أنه أمام امرأة عنيدة ومقاتلة، تغيرت لهجة الحديث، وقرر أن يقابلها من فوره في المكتب وأعطاها ورقة الزواج العرفي، نظرت إليها وأخرجت سيجارة وأشعلتها، ثم أشعلت الورقة في طفاية للسجائر فوق سطح المكتب، أخذت نفسًا من السيجارة ثم طردته إلى الخارج.

أزيح عنها كابوس ثقيل، في اليوم التالي استقبلت الأسرة بعد أن وصل أخوها «**شكري**» الذي كان ثائرًا عليها لأول مرة.

بدأت «**ليلى**» الحديث، لم تترك لهم الفرصة لكيل الانتقاد، أفهمتهم أنه لم يكن هناك أي زواج عرفي، وأنها أرادت بذلك اختبار أمانة «**رجاء**» في الحديث، واخترعت تلك القصة كي تتأكد من أمانتها، اقتنع الكل على مضض بتلك القصة لم يكن أمامهم سوى تصديقها، وخاصة أن «**ناجي**» حدد آخر الأسبوع مع «**شكري**» موعدًا لعقد القرآن.

لم تصدق أمها، نظرت إليها نظرة ذات مغزًى لم تقوَ «**ليلى**» على مواجهتها، أدارت رأسها نحو أختها منى لتغير مجرى الحديث، سرعان ما تم نسيان الموضوع مع تناول الأحاديث التقليدية، خرجت «**ليلى**» من هذا المأزق وفي قلبها جرح غائر، قررت أن تغير مجرى حياتها من جديد لعلها تعيش حياة مستقرة، لقد باتت

الآن مستعدة لأن ترتمي في حضن أي رجل صادق كزوج حقيقي يعلم معني الوفاء، كانت تمني نفسها أن يكون «**ناجي**» قد تغير، أرهقتها الوحدة وباتت تتوق إلى طعم الاستقرار، فالمظاهر لا تستطيع تحقيق السعادة، لقد أفنت فترة من شبابها في دوامة العمل، إن ما تحققه في عالم المال لا يساوي ما ضحت به من استقرار، تلك المعاني بدأت تتسرب إلى رأسها، إنه نهج جديد في التفكير، لم تكن تؤمن به من قبل، كانت الوحدة وطعمها المر تملأ حلقها، تُرى هل سيفهم «**ناجي**» ذلك؟ بالطبع لو استطاع أن يمنحها الحنان الصادق سوف يستأثر بحياتها، هي عنيدة على حساب نفسها، ورقيقة على قدر شراستها، ليت «**ناجي**» يصل إلى مفاتيح قلبها، لقد أرهقتها الحياة.

كان اللقاء ساخنًا ومتوترًا، ولكنه أعادها إلى حضن الأسرة، فقد كانت وفية لأسرتها ولأمها، كانت دائمة الاقتراب منهم، كانت بارة بهم، كانت تحب أولاد إخوتها، الكل ينتقدها ليس كراهية وإنما حبًا ورغبة في استقرارها.

لم يفهموا أنها تحيا بشبق نحو الحياة يفوق كل التصورات، كانت حالمة بعالم لا يوجد إلا في خيال البشر، تصورت أن عالم اللذة سوف ينبثق بالمال والشهرة، مازالت بالنسبة للثراء فقيرة، وما لديها من مال لا يسمح لها أن تسكن بـ«فيلا» في «**الكمباوند**» إن الجلسة العائلية مسحت من قلب «**ليلى**» همومًا أثقل من الجبال، أدركت أن طعم الصفاء أحلى من طعم المال، وعندما تيقن أخوها «**شكري**» من استقرار الأمور؛ عاد لعمله بالكويت في صباح اليوم التالي.

موعد رجوعها لـ«**ناجي**» نهاية الأسبوع، ولكنها اشترطت قبل الرجوع أن تلتقى «**ناجي**» كي تتفق معه على أسلوب الحياة حتى لا يحدث أي اختلاف فيما بعد.

٢٠- الإعصار

محاولات التصالح أهم ما تحرص عليه الأم «**هند**»، التي كانت تشعر بأن أجلها قد دنا، وكل أبنائها يعيشون حالة مستقرة، عدا «**ليلى**»، تود الاطمئنان عليها، في صباح اليوم المحدد للقاء «ناجي» شعرت ليلى بمغص شديد وقيء متوال، يا للهول، إن شيئًا ما يتحرك في أحشائها، أيقنت أنها حامل، لم تكن تتوقع ذلك.

في تلك الليلة المشئومة كان لقاؤها مع «**فتحي شهدي**» بدون مقدمات، فلم تأخذ أي وسيلة لمنع الحمل، بدأت الأفكار السوداء تدور في رأسها، هي لا تريد أية فضائح جديدة، كان الوقت يقترب من الضحى، ومعظم الأطباء يتواجدون في الفترة المسائية. ذلك الحدث الذي يجعل حواء تقفز في السماء ابتهاجًا بالأمومة؛ جعلها تتمنى الموت، أو التلاشي من الوجود كله، تمنت أن تخسف بها الأرض، أو تكون نسيًا منسيًا.

أما «**ناجي**» فكان ينتظرها على الغداء في أول مطعم خرج معها فيه، أغلقت الهاتف المحمول من هول الصدمة، وأصبحت كالغريق في بحار الأوهام، لا تدري أين المفر؟، ومضت ثلاث ساعات و«**ناجي**» مازال ينتظر قدومها دون جدوى، شعر بالحرج من طول الانتظار، وعندما أدرك أنها لن تأتي قام بدفع الحساب، وانصرف.

بينما «**ليلى**» تبحث عن الخلاص، عثرت على طبيب انتهازي سوف يخلصها من وصمة العار، وذلك بعيادة خاصة، كان الطبيب «**شريف طاهر**» لا يعرف من الشرف والطهر إلا اسمهما، كان قصيرًا، جسده رياضي، بشرته مائلة إلي السمار، يجيد المراوغة، وعادة ما يبتسم نصف ابتسامة عندما يتكلم مع المريض في أجره، بعدها يبدأ المساومة في أجر الجراحة، في البداية تعلل بأن ذلك ضد القانون والدين، كان هذا التمنع كتمنع النساء

وهن الرغبات، كان يعلم أن الجريحة في ورطة، ولذا ظل يمثل الرفض لفترة، وهي تتوسل إليه، بيد أن «**ليلى**» تعرف أن الأموال تفتح الأبواب المغلقة، هدأت من روعها، وعرضت عليه ٥٠ ألف جنيه، كان هذا المبلغ أكبر من خيال هذا الذئب القابع بين ملائكة الرحمة كشيطان مَريد، فكل ما كان يسعى إليه هو ٧ آلاف جنيه.

بعدها تحول الطبيب «**شريف طاهر**» الذي بدا مستعصيًا إلى عجينة لينة في يدها، وطلب منها أن تعود إليه في المساء، ولكنها كانت تتعجل الخلاص، أصرت على إجراء عملية الإجهاض فورًا، فهي لا تطيق أن يمكث الجنين اللقيط في أحشائها لحظة واحدة، تحت سيف النقود الذي لا يشق له غبار؛ أذعن الطبيب لرنين الذهب، لم يتردد في الاعتذار للزبائن عن العمل في هذا اليوم، فبضع مئات سوف يتلقاها من أجور الكشف على النسوة الحوامل لا تذكر إذا ماقورنت بالآلاف المؤلفة.

كانت بالعيادة امرأة أخري تعاني من نزيف حاد، وعلي وشك الإجهاض، توسلت إليه لإنقاذ جنينها بكل الطرق، نهرها، وطلب منها الذهاب لطبيب آخر، في حين أن حركتها كانت تهدد حياة الجنين، لم يكترث بتوسلات أم تتمنى الموت من أجل إبقاء جنينها الذي سوف يلحق بستة أجنة سابقة أسقطت منها بسبب عيوب في الرحم المعتل، وبعد جدل وتوسل من الجميع، ومن أجل إنقاذ ماء الوجه؛ اتصل بطبيب آخر من زملائه، فجاء ليباشرها، تُرى لو لم يأت زميله، هل يتقاعس عن إنقاذ روح تصبو للوجود؟ من أجل قتل جنين في رحم امرأة أخرى؟

وعلى الفور سخر تاجر الأرواح البريئة، كل من يعمل بعيادته بإجراء كل الفحوصات اللازمة، وقبل إجراء عملية الإجهاض، ومن باب إبراء الذمة الخربة، أبلغها أن ذلك الأجهاض سوف يحرمها من الإنجاب نهائيًا، شعرت بصدمة أخرى، واكتشفت أنها في مأزق أشد وطأة من الفضيحة، في لحظة تبدد إصرارها

السابق على عدم الإنجاب، ولعنت نفسها بسبب تخلصها من الجنين الأول، والذي كان ثمرة زواجها من «**ناجي**»، وفجأة، وعلى النفيض من قناعاتها الواهية في السابق، عادت إلى رشدها، وتمنت حصاد ثمرة البنوة، شعرت بأنها تشتاق إلى الأطفال، ولأول مرة ينتابها هذا الشعور الجارف، يكاد الموت أن يأكلها من الحسرة، فلا تستطيع الاحتفاظ بثمرة العلاقة الآثمة، ولن تكون قادرة على مواجهة الآخرين بابن سوف يستقبله المجتمع كفسلٍ لقيط، سوف تقترن رغبتها بالحفاظ على الجنين بفضيحة كبرىً، تطيح بمستقبل الطفل القادم ومستقبلها.

حاولت حل المشكلة، ورد بخاطرها الاتصال بـ«**فتحي شهدي**» لتتزوجه ليوم واحد، وبعدها يطلقها، حتى تستطيع الاحتفاظ بجنين له أب شرعي، لأول مرة تتنازل عن كبريائها وغرورها، طلبته، وقصت عليه الأمر بكل تفاصيله، وراحت تتوسل إليه توسل الذليلة الخانعة، ترجته أن يتزوجها ولو ساعة، وبعدها يطلقها، وعدته بأن هذا الزواج سيبقي سرًّا، كانت دموعها تتساقط على خدها فتحفر خطوطًا طولية ومتعرجة داخل الماكياج الكثيف فوق وجهها، كان مجرى الدموع أشبه بقنوات المياه التي تخترق الأرض القاحلة، لم يكن «**فتحي شهدي**» على استعداد لخسارة زوجته أو استقبال طفل يبدد أحلامه، لم يستجب لتوسلها، فمثله لا يقيم للمشاعر قدرًا، ولا للأخلاق وزنًا، فمن يدوس على أعمار الكادحين ويسرق أقواتهم ودواءهم، لن تعنيه حياة جنين وإن كان ابنه، هيهات أن يسمع الخسيس للمروءة صوتًا، أو أن يستجيب الأصم للصرخات صممًا، مثل هؤلاء قومٌ قلوبهم غلفٌ، ران عليه الصدأ، لا أمل فيهم، ولا رجاء منهم.

وكمثله هذا الطبيب، بلا أحاسيس، لم تهذب العلوم خلقه، لم تستطع «**ليلى**» في هذه المرة أن تحبس دموعها كما فعلت في المرة الأولى، عندما تم طلاقها من «**ناجي**»، انفجر بداخلها بركان، وقوة خفية تجذبها نحو مشاعر الأمومة جذبًا، سقطت

كل الأماني والأحلام التي كانت تعيشها في السابق كأنها الهشيم تذروه الرياح، فقط كان صوت الأمومة يزلزلها، هانت الدنيا عليها بما رحبت، أمام شوقها لبسمة طفل بريء، تمنت أن ترطب براءة الطفولة الجفاف في ثنايا عمرها، الآن فقط فهمت، كيف غابت هذه الحقيقة البسيطة عنها، انهالت على نفسها بكل صنوف التوبيخ، كانت تصرخ:

- ياربي كم كنت غبية، والحياة لا تنتظر الأغبياء حتى يفهموا، إنها تمر من حيث جاءت، ربح من ربح، وخسر من خسر.

دخلت غرفة العمليات كأنها جثة هامدة بلا روح أو حتى رغبة في الحياة. وعندما ألبسوها زي الجراحة شعرت أنها ترتدي كفنًا، وعندما وضعوها على السرير المتحرك كانت تشعر أنها محمولة فوق نعش الموتى، وعندما نقلت على «**الترولي**» لإجراء العملية شعرت أنها كمن دخلت القبر لتدفن وهي حية، أعطاها الطبيب المخدر فغاب الإحساس عن جسدها، ولكن روحها مازالت يقظة، الصرخات من أعماقها تحرك شفتيها رغمًا عنها، الكلام يتدفق على لسانها كأنه سيل من المرارة يعكر صفو المكان.

توقف الطبيب ظنًا منه أن المخدر لم يأت بمفعوله ولكنه ذهل، التخدير حقق غياب الإحساس بالألم، ولم يغيب عقلها أو إدراكها، كانت الحالة الماثلة أمامه توحي برفض غير عادي لفكرة الإجهاض، عاطفة الأمومة لم تمت عندما احتضر الضمير فيها، ومات في من حولها.

كان المنطق يقتضي وقف عملية الإجهاض، بعد أن تأكد الطبيب بتشبث الأم بالجنين، ولا توجد غضاضة في تأجيل الأمر ليومين أو ثلاثة، ربما يمكن بعدها حل الأمر.

الأمر يشي بنفسه، «**ليلى**» قد غرر بها، كان يمكن لهذا الطبيب أن يتدخل كإنسان ليحاول إيجاد حل مع الذئب الذي تخلى عنها، ربما كانت هناك فرصة ممكنة للنجاح، ولو بنسبة

واحد في المائة. إن المستقبل الذي ينتظر «**ليلى**» مستقبلٌ أسود، وسوف تخرج من هذا الحدث منهارة نفسيًّا، لن تكون سوى جسد بلا روح، ستقتلها الآلام ، ستعيش خارج حدود الزمن والعقل والمنطق.

كان الطبيب أشرس من الذئب الذي فتك بها، كل همه هو المال، استجمع قواه وبدأ في الإجهاض رغم توسلات أعين طاقم التمريض، كن يتألمن معها، فهن أمهات ويعلمن خطورة أن تصبح المرأة أرضًا بورًا بيدها، لو أن الأمر جاء خارجًا عن إرادتها فلا توجد هناك مشكلة، سيكون قدرًا .

من الصعب أن تتسبب امرأة في تدمير قدرتها على الإنجاب، انتهت الجراحة، وذهب مفعول المخدر ولكن ليلى لم تفق، شعر الدكتور برهبة فهو أمام حالة من حالات الموت، وما زال القلب يعمل والشهيق يتدفق والزفير يخرج، ما هذا ؟ عقل ليلى يرفض العودة إلى الحياة لكي يواجه الحقيقة الجديدة، هناك رد فعل داخلي يقاوم عودتها للإدراك حتى لا يزداد الألم.

ظل الطبيب معها طوال الليل وهو مضطرب، لو أصابها مكروه سوف يتعرض للمساءلة القانونية شعر بشيء من الندم، ليس على ليلى كحالة إنسانية ولكن على الخطورة التي يمكن أن تعصف به، هو كغيره من فقس زمن الفساد، كان كالعبيد لا يردعه عن الجريمة إلا الخوف من العقاب، ومتى استطاع الفكاك منه لا يتورع عن فعل أي شيء مخالفٍ للقانون.

رغم قوة المخدر؛ لم يغب الوجع عن قلب «**ليلى**» لحظة، كانت نصف ميتة، والنصف الآخر يحلق مع الذكريات، فتغوص في الماضي عبر الآلام الممزوجة بالمرارة، ربما كانت ترفض العودة إلى هذا العالم.

ولكن المدهش أن وجهها كان يعود للدنيا مع صوت الأذان مبتسمًا، شفتاها كأنها تناجي داعي الإيمان أن يمد يدًا لينقذها،

والابتسامة لا تنطفئ إلا بنهاية الأذان، والممرضات تتساءلن كيف لمثل هذه المرأة المستهترة أن تصبو لنداء الهدى؟ وكيف تجتمع تلك اللمحات النورانية مع مجونها؟ هذا التناقض الغريب لم تكن له إجابة، أما الطبيب الحائر، لم يشغله سوى صوت المال.

ويبدو أن هذا الصوت القادم من فوق المئذنة كان مرادفًا للأمان الذي لمسته بيد أخيها «**شكري**» الذي تلقى عنها الضربات الحارقة في الماضي البعيد عندما كانت طفلة، ومن يومها اقترن لديها هذا الصوت بالأمن، وأصبح مؤثرًا يغمس في قلبها الطمأنينة، كانت روحها تتوق أن لتلبية النداء، بيد أن طغيان المادة الغاشم كان يحول بينها وبين أن تلبي، في قرارة نفسها تشعر بأن الخلاص سوف يأتي عندما تعود روحها للفطرة السوية، ترى هل تعود يومًا ما؟

في الصباح أفاقت «**ليلى**» وأصرت على العودة إلى البيت، وطلبت ممرضة لتصطحبها على أن يأتي الطبيب إليها في المنزل ليتابع حالتها، وعدته بدفع تكاليف تلك الخدمة أيضًا، وهذا ما أثلج صدره الخرب، أخذت معها «**نورا**»، تلك الفتاة الرقيقة التي كانت تمرضها أثناء الجراحة؛ حتى أفاقت، كانت الممرضة طيبة القلب، ذات إحساس مرهف، تعلمت مهنة التمريض بعد دبلوم التجارة، حتى تجد عملا تعيش منه، وتكره هذا الطبيب أشد ما يكون الكره، بسبب انتهازيته، وموت ضميره، ولذا قررت تركه بعد هذه الجريمة، كانت تتألم لما لحق بالذبيحة، وتعاملها برفق وحنان كأنها أحد أفراد أسرتها، شعرت «**ليلى**» بذلك فلا يمكن لقلب أن يخطئ الحنان.

وهي على حافة الموت، كان «**ناجي**» يحاول الاتصال بها عشرات المرات في اليوم الواحد، وهي لا ترد، فهم أنها لا تريد العودة إليه، وقد رأت على الهاتف الأرقام التي طلبتها ولكنها لم تعر اهتمامًا لأي أمر، مرت الأيام، وبعد الأسبوع الأول استطاعت ليلى أن تتعافى، ولكن مع شحوب في الوجه وهزال في الجسد،

شعرت أنها تريد أن ترى أمها «**هند**»، هي بحاجة إلى حنانها.

تريد أن ترتمي في حضنها لم يعد في الدنيا حضن آخر يمكن أن يسعها أو يلملم جراحها، قامت وارتدت ملابسها ولأول مرة لا تلقي للمظهر بالًا، لاحظت طوال الطريق أن لا أحد يهتم بها، فقدت قدرتها على التأثير، ربما لم تستطع تحمل ذلك، استقبلتها الأم بترحاب شديد، ارتمت «**ليلى**» في أحضانها واستسلمت ليد أمها، وهي تهدهد شعرها، تذكرت تلك اليد فقبل قدوم ريهام في مرحلة الطفولة كانت تستمتع بتلك اللمسات الحنونة وحدها، وهي الآن بعد أربعة عقود تنال نفس الحنان المفقود وحدها.

كانت أمها قد ذبلت وهزمها الزمن، وأصبحت تتحرك بصعوبة، كانت تجيد عمل الملوخية وطلبتها منها «**ليلى**».

خرجت «**ليلى**» وعادت بحزمة ملوخية خضراء وأرنب وبعض احتياجات الأم، كانت «**ليلى**» دائمًا ما تحرص على تزويد أمها بكل ما تحتاج إليه، لم تنسها طوال تلك الفترة بعد أن وضعت المشتريات بالمطبخ دخلت لتوقظ أمها، لقد ظنتها نائمة على السرير، أخذت توقظها، لم ترد، يدها بلا حراك، لقد فارقت الحياة.

تسمرت «**ليلى**» في مكانها برهة، ثم أخذت تهز أمها بعنف لعلها تعيد الحياة إليها بلا جدوى، كانت تذهب إلى المطبخ، ثم تعود لأمها بصورة هستيرية، وتناديها باكية.

ليلى: أمي، لقد أحضرت الملوخية.

ثم تذهب إلى المطبخ ثانية وتتخيل أمها لم تمت، وتعود لتقبيلها تارة أخرى، ظلت على هذا الوضع وهي تصرخ في الذهاب والإياب، كان موت أمها طعنة أخرى، لم تكد تمر ساعات حتى حضرت أختاها ريهام ومنى، وبدأت إجراءات الغسل.

وبعد الانتهاء منه ووضعها في الخشبة تمهيدًا لخروجها وحملها، اندفعت «**ليلى**» تتعلق بها وتحاول منع الرجال من حملها، تحتضن

خشبة النعش، كانت تشعر أن جزءًا منها قد ضاع في الإجهاض والجزء الآخر محمولا على هذا النعش، اندفع نحوها «**شكري**» الذي جاء علي أول طائرة من «**الكويت**» لحضور مراسم دفن امه وحملها عنوة إلى الداخل وهي منهارة، وسط دموع غزيرة تنهمر من عيون الحاضرين كان حزن الأسرة والأقارب على «**ليلى**» لا يقل عن الحزن على فراق الأم، مرت الأيام متتالية، وليلى مكتئبة لا تدري ماذا تفعل؟

وبعد عدة شهور عادت إلى عملها، وهي في غاية الألم، الحزن أصبح رفيقها، فلم تعد هي تلك الفتاه التي تقبل على الدنيا بكل جوارحها، وأيضًا لم يتوقف «**ناجي**» عن طلب العودة إليها، تدخل الأهل والأصدقاء من جديد، بدأت تشعر بنفور منه، كانت غيرته القاتلة هي سبب الطلاق والإجهاض، تركها وسط هذا العالم وحيدة وعرضة للذئاب، هو السبب، فلو تحمل عامًا واحدًا لتغير كل شيء، هكذا كانت تقول لنفسها.

على مضض وافقت على العودة، وتم تحرير العقد عند المأذون، ولكنها طلبت من «**ناجي**» أن يمهلها يومين حتى تستقر نفسيًا، كان «**ناجي**» في غاية السعادة لأنه استرد «**ليلى**» مرة أخرى، ولكن «**ليلى**» لم تسترد نفسها، وبعد يومين في الموعد المرتقب خرج من المعرض يقود سيارته وهو يمني نفسه بعودة الحبيبة إليه، فأحضانها الدافئة مازالت تثير شوقه، صحبتها تجعله يحلق في الفضاء هائمًا، طوال الطريق وهو بين الحلم والرجاء ويحدوه أمل كبير في قطع الطريق والانتصار على الزمن، شوقه إليها كشوق الغريق للنجاة في لحظة الاحتضار.

وسط الآمال، والأحلام فجأة ضربه سائق مستهتر من الخلف بسيارته ضربة قوية جرَّاء سكره، اختلت عجلة القيادة وسقطت السيارة من فوق كوبري الجيزة، فلقي مصرعه في دقائق قبل أن تكتمل فرحته بالعودة، طار الخبر إلى «**ليلى**»، لم تصدق انتابتها حالة هستيرية، تارة تبكي حبيبها بحرقة وتقبل ملابسه

ومتعلقاته، وتارة تصرخ وتكيل له السباب، كانت تدمع برهة وتبتسم أخرى، كل الحاضرين يبكون «**ليلى**» رغم أنهم جاءوا لعزائها في «**ناجي**».

لم تهدأ «**ليلى**» سوى على كتف «**شكري**» يمسح دموعها، ويهدهد شعرها، شعرت بهدوء يشبه تلك المرة التي كان والدها يضربها بالحزام، بسبب تشبثها بالعروسة، وهي في سن الطفولة.

كان «**شكري**» مصدر الحنان، والملاطفة في المرتين، ولكن هذه المرة السياط التي تضربها أقسى من الأولى، إنها تنهال عليها من الداخل من نفسها المكسورة، لم تعد تشعر بلذة الحياة، فقدت خصوبتها وأمها وأول من أحبت، تلك الحالة تجعلها تدخل أغوار المرارة، فكلما تذكرت حرمانها من الأمومة تنقلب مشاعرها نحو العداء لفكرة الحب، وتسخر من كل المحبين، تذهب إلى العمل كهيكل وصورة، وتعود إلى البيت محطمة منهارة، ولا يدري أحد من الأسرة كيف ينقذها من هذه الآلام، والأوجاع التي لا تنقطع، ترى ماذا تفعل لكي تهدأ؟

كانت ترى في نومها فارسًا يمسك بسيف خشبي ويحارب ثعابين كثيرة، كان الثعبان الأول بوجه «**فتحي شهدي**»، والثاني بوجه «**سمير طايع**» وآخر بوجه الطبيب «**شريف طاهر**» الذي أجهضها، كان هذا الفارس رغم ضعفه، لا يخاف من كل هذه الثعابين، وبمجرد أن شاهد الآخرون هذا الفارس وحده، تجمعوا حوله بسيوف من خشب لإنقاذه واستهانوا بالموت، فتكاثرت عليهم الثعابين من كل حدب وصوب، تكاد تبتلعهم، فتنهض ليلى تصرخ كأن هذه الثعابين سوف تلدغها هي الأخرى. يتكرر هذا الكابوس كلما نامت، فأصبحت تهرب من النوم، حتى إن غلبها تعود لترى نفس المشهد، ولا أحد يدري كيف ينقذها.

٢١- التصدع والضياع

فبعد أن كانت «**ليلى**» تحلم بالعيش في عالم البشر كالملائكة، اليوم تحيا في عالم القهر بين الشياطين، لقد ساقها غيها لتسقط بين شريحة من البشر؛ تبدو أفكارهم المنمقة كأنها ثمرة النعيم، بيد أن سواد قلوبهم الخبيث المنبعث من كير الحدادين، كانت تشعر أن زجاجات النبيذ المُعتق التي بين أيديهم مصنوعة من دماء وأوجاع المحرومين،

كانت تشعر بأن أوراق البنكنوت التي بيدها قد نمت بها رؤوس من طلع الشياطين، تارة تنفق بجنون لتبدد المال، كأنها تتخلص من السموم التي علقت بها، تتأرجح بين الاكتناز والإسراف، وتتقلب بين الوعي والتيه.

أصبحت «**ليلى**» كالدمية، منهارة، هيكل لروح فقدت الأمان، الضياع يجسم فوق صدرها آناء الليل وأطراف النهار، أحشاءها حبلى بالأوجاع التي ليس لها مخاض، لا تنام، من الأرق، المسكنات لا تجدي معها نفعًا، كانت تأكل البصل الضروس في منتصف الليل حتى تنام، كانت تتحمل طعمه اللاذع على معدة خاوية لمجرد أنه يساعدها على النوم.

تعيش غير مستقرة، انتابتها رغبة في عدم مخالطة البشر، الفشل في الحب أمرضها، كانت دائمًا ما تسمع أصوات «**ناجي**»، وأمها، وإخوتها وهم ينتقدونها، كانت تلك الأصوات في أذنيها كالطنين الذي لا يتوقف، تكلمهم وتتخيلهم حاضرين يسمعونها، ولكن هيهات أن يسمع الماضي الميت صوتًا قادمًا من الحاضر الحي.

تتعالى في أعماقها صرخات الفشل، فقد قتلت طفليها مرتين، يسيطر عليها التشاؤم، ربما كان العمل والإرهاق والمرافعات داخل المحاكم هما السلوى. دائمًا متعصبة، ولكن

قوتها الكامنة تجعلها شبه متماسكة من الخارج.

قررت أن تغير حياتها بالكامل هربًا من الماضي وذكرياته، انتقلت إلى السكن من شارع «**البطل أحمد بن عبد العزيز**» بحي «**المهندسين**» إلى العيش بمنطقة «**حدائق الأهرام**» دون جدوى.

ذهبت إلى طبيب نفسي، لعلها تجد ما يهدّئ من روعها، وقع الطبيب المعالج تحت تأثيرها فلم يوفق منذ أول جلسة في أن يسيطر على الحالة، فسيطرت عليه المريضة، ولم يعد قادرًا على فراقها، كانت تضحك من الأقدار.

كان الطبيب «**رشدي المنسي**» خمسيني، بشرته سمراء، قلبه ناصع البياض، تزوج وهو طالب بكلية الطب، وذلك إرضاءً لأبيه؛ لأنه وحيده، وقد رحلت عنه زوجته، منذ عام، ويبتغي أنثى تؤنس وحدته.

كان كغيره من الأطباء الذين يمارسون الطب حسب المفهوم التقليدي لم يَع حالتها، ربما بسب وقوعه في حبها، أصبح الطبيب يحتاج إلى طبيَب، لأول مرة تضحك بإسراف جرّاء سخرية القدر، وأجمل ما بالطرفة أنها ستُشغل جزءًا من الفراغ لديها، ومع كثرة التردد على العيادة، تم تبادل دعوات العشاء ثم الخروج سويًا.، عشق «**ليلى**» هو الآخر عشقه للحياة، وبعد ستة أشهر عرض عليها الزواج، ترددت في الموافقة، لم يستطع أن يقتحم أغوارها.

وكأن القدر عاد ليخط بصمته من جديد، عندما ماتت «**شهد**» زوجة «**سامي السلاموني**»، والذي عاد هو الآخر يلتمس في «**ليلى**» الود القديم، وزاحم الطبيب في الصراع عليها، وعرض عليها الزواج، مما أشعل الحيرة في قلبها، فقد تبدّلت المواقف، «**ليلى**» الحالية تسعى للمال بشدة، و«**سامي السلاموني**» يسعى إلى الصفاء بكل ما لديه من طاقة، هذا التناقض لم يمنع العاشق القديم من التقرب إليها، بل كان يعذرها، وعقد الرهان بينه وبين نفسه على أن يعود بها إلى فطرتها الأولى، ميزة هذه الحيرة أنها

قتلت بعضًا من الفراغ لديها، ومازال العاشقون يقرعون أبوابها بشدة، وهي تؤجل الرد.

قبلها، ومنذ فترة كانت «**ليلى**» قد عزمت على خوض غمار الاستثمار العقاري، وقررت شراء قطعة أرض بشارع الهرم لبناء عدة أبراج سكنية، فهذا هو الطريق الحقيقي للثراء، وعثرت على قطعة أرض كبيرة مساحتها ٣٠٠٠ مترًا وهي تريد ١٥٠٠ مترًا فقط لبناء أربعة أبراج، وصاحب الأرض يرفض البيع بالتجزئة، تصادف وجود مهندس شاب هو الآخر يريد شراء ١٥٠٠ مترًا، كان المهندس «**نبيل الحاوي**» عذب اللسان، جميل الهيئة، يغلف غروره بالتواضع، وانتهازيته بالرقة، شديد المرواغة،كان يصغرها بعدة أعوام، ومتزوج، كان اعتناؤه بالمظهر يذكرها بشبابها، تحول هذا التعارف إلى صداقة، وتطور إلى شراكة في البناء.

تعهد «**نبيل الحاوي**» بالإشراف على أبراجها، رحبت «**ليلى**» بهذا التعاون فهو في نظرها متخصص، ويستطيع الإشراف على المشروع، كان ينظر إليها على أنها امرأة جميلة يمكن أن يقضي معها وقتًا جيدًا، فوجود أنثى معه في هذا المجال سيساعده على إنهاء إجراءات التراخيص، فالنساء تحقق نتائج أفضل في التعامل مع موظفي الحكومة.

تشعر «**ليلي**» بقوة تشدها نحو الماضي، وكانت ترفض الاعتراف بمرور الزمن، وتنجذب نحو من أصغر منها، لعلها تعود تعيش شبابها الذي مر دون حياة، فقد اقتربت من منتصف العقد الخامس، وتريد أن تحيا في سنوات الثلاثين من عمرها، هذه الهواجس والآمال جعلت «**نبيل الحاوي**»يلمس الوجع الذي في روحها، فأخذ يضمده بعبارات الغزل الرقيق، فهبطت كلماته كالمياه فوق الأرض القاحلة، كان يتدرج للوصول إلى هدفه، بدايةً من لمس الأيدي، ثم تشابكها، ثم مداعبة الصدر، ثم القبلات، كان محترفًا في خداع النساء، وربما كان أشد

ضراوة من «**فتحي شهدي**»، اعتاد أن يمرر رغباته تحت ستار الآلام النفسية التي فشل الطبيب في تشخيصها وعلاجها؛ كانت المقهورة خارج الوعي، مسلوبة الإرادة، تسيطرعليها الاضطرابات تهذي في أوقات وحدتها، كان تواجدها مع «**نبيل الحاوي**» يقصر تلك الأوقات، وخاصة أن العمل في بعض الأحيان كان يمتد إلى منتصف الليل.

تعيش حالة من اليأس تجعل تسلل المشاعر إلى قلبها أمرًا شبه مستحيل، تودد «**نبيل الحاوي**» لها لنيل الرضا يثير الشفقة أحيانًا، وظل الذئب الصغير فترة لا يستطيع تجاوز مرحلة القبلات، وعندما ألمح لها برغبته في الزواج منها كنوع من الاستدراج، رويدًا، رويدًا استسلمت ونال الذئب ما يريد.

أدركت أنه مخادع، وبدأ كل من الطرفين يتلاعب بالآخر، هو يرى في القرب منها ما يرضي غروره، وهي تعتقد أنها تحركه كالخاتم في أصبعها، ومرت الأيام دون زواج، كانت «**ليلى**» عندما تعود إلى رشدها، تصرخ في نفسها ترفض هذا الوضع، وتقاوم هذه العلاقة، لكن آلامها جعلتها تفر من الآلام إلى الضياع.

يشعل الألم النفسي لديها رغبة الانتقام من كل الرجال، فما كان رجل يقترب منها إلا وأقسمت أن تجعله يكتوي بنار الجوى دون أن ينال منها شيئًا، إلا هذا الوغد الجديد.

يلهث وراءها كما لا يستهان به من محدثي النعمة، منهم ذلك البدين «**أبو دومة**» أحد كبار المستثمرين، وصاحب شركات «**الأمل للأجهزة المنزلية**» كاد يبكي بين يديها لكي ينال منها لقاء، كانت تشعر بلذة وهي تكوي الرجال بنيران الشوق، فهم مخادعون كاذبون ماكرون، جميعًا خدعوها باسم الحب.

تعيش مرتبكة، تارة تغار من قصص الحب بين الشباب، وتارة تسخر من كل المحبين، في قلبها نار، وفكرها شارد.

يحاصرها في طلب الزواج إلحاح طبيبها البليد، ولكنها قبلت في النهاية بالزواج من«**سامي السلاموني**» ومع أنها لم تحبه، اعتبرته مجرد ونيس في الوحدة، لعل الليل يمر عليها دون عناء.

لم يعالج هذا الزواج شعورها بالاكتئاب، فاستمرت تعلق الرجال في أحبال الرغبة دون النيل منها، لم تشعر بلذة الحياة، ولم تستمتع بما جمعت من مال، فما زالت تحتاج إلى سيد حنونة، وقلب طيب، ولكن هيهات أن تجد، فالزواج بالعقل أيضًا لم يحقق لها التوازن المنشود، ولم يستطع «سامي السلاموني» انتشالها من الوحدة.

٢٢- المصيدة

شعرت «**ليلى**» في الشهور الأولى بعد الزواج من «**سامي السلاموني**» ببعض الارتياح لوجود ونيس معها، ولكنها عادت تشعر بالوحدة من جديد، ولكن بدرجة أقل مما كانت عليه من ذي قبل، وما يزعجها اليوم هو تعثر تسويق الوحدات السكنية في أبراجها الأربعة.

حدث جديد عندما تم افتتاح شركة «**الأحول للتسويق العقاري**» بالشقة التي تقع أسفل مكتبها، واعتقدت أنه يمكن لهذه الشركة أن تتعاون معها في تسويق وحدات أبراجها السكنية، وكانت تريد التعرف على صاحب الشركة بأي وسيلة، ولكن بصورة تجعله يسعى إلى هذا التعاون.

كان صاحب هذه الشركة الجديدة «**طلعت الأحول**» من فيلق غريب الأطوار، قصيراً أبيضاً بياضاً كالحًا، تجاوز الستين من عمره، جسده مائل إلى السمنة، لم يتجاوز في تعليمه مرحلة الابتدائية، بخيلاً، والعاملون معه يدركون ذلك، وكانوا أحيانًا مضطرين للعمل نظرًا لظروف البطالة.

أما مدير شركة التسويق «**فهيم الفقي**» كان على نقيضه، طيبًا، وكريمًا، ومتزنًا، خبرته ضعيفة في التعامل مع السوق، ولذا قرر الاستعانة بصديقه «**كمال عمر**»؛ ابن قرية «**الدلجمون**»، ليعمل بالفترة المسائية، بعد الانتهاء من عمله الحكومي، كمسئول عن شئون العاملين بالشركة فقبل، ولكنه عندما تعامل مع صاحب الشركة أدرك من الوهلة الأولى أنه لا يمكن لأحد أن يستمر في العمل مع هذا الرجل، بيد أنه قرر خوض التجربة للنهاية.

لم يكن «**كمال عمر**» رجلًا عاديًا، فعلى الرغم من عدم اهتمامه بالمظهر، وبساطة ملبسه الذي يدل على شظف العيش

كان يمتلك نظرة ثاقبة، ربما بقاؤه متأرجحًا هبوطًا وصعودًا عند الطبقة الوسطى، كان بسبب تمسكه ببعض القيم.

فقد زرعت أمه في نفسه الثقة زرعًا منذ الطفولة، فشب بفيض حنانها رجلًا مكتمل الرجولة، وأهم ميراث حصّله هو الصدق، فلا يكذب أبدًا، والأمانة فلا يخون صديقًا، والشجاعة فلا يجبن، كان أحيانًا يلجأ إلى المناورة للتغلب على الخلل الذي ضرب الحياة دون أن يتخلى عن خصاله النبيلة.

كان مؤمنًا بأن أجمل ما في الحياة هو الحب، ولكنه لم يتذوق طعمه، إلا بقدر يسير عندما كان في المرحلة الثانوية، ولكن مصاعب الحياة جعلته يدرك منذ البداية أن الحب الوليد من الصعب أن يكبر في ظل طغيان عالم المادة، ففضل كبت مشاعره في فترة الشباب رغمًا عنه، ولكنه مازال متأكدًا أن أجمل ما في الدنيا هو قلب حبيبة تغمر الحياة بفيض من الرقة والحنان، ربما لم يشعر بذلك مع زوجته، وكان شعوره بالرضا يجعله يتغلب على تلك المشكلة، فطالما لم يجد الحب الذي بحث عنه في المرأة، استعاض عنه بحب كل من حوله.

أما «**ليلى**» فقد كانت تحاول بكل الطرق التواصل مع من يعملون بشركة التسويق المجاورة دون جدوى، كان من الممكن أن تحدد موعدًا، تهبط مباشرة لعرض الوحدات السكنية التي لديها على صاحب الشركة كما يحدث، بيد أنها كانت تريد أن يسعى إليه صاحب الشركة مفتونا بها، لتفرض شروط التسويق عليه.

كانت قبل أن تهبط من السيارة في الصباح تخرج عطرها، وتبالغ في رش ملابسها ثم تعطر يدها اليمنى وتتعمد لمس «**الدرابزين الحديدي للسلم**» من الدور الأول حتى الدور الثالث، كانت رائحة العطر كشذى الورد الذي يفوح بأطيب الروائح، بمثابة الإعلان عن وجودها، وأيضًا تفعل نفس الشيء عندما

تهبط قرب المساء قاصدة منزلها، ربما كانت تريد أن تشعر الآخرين بوجودها ؛ لتجذبهم كما تجذب الورود الفراشات، كانت رائحة العطر النسائي المعتق تترك روعة وسحرًا على المكان بأسره.

في يوم ما تصادف صعود «**كمال عمر**» للسلم، و«**ليلى**» تهبط مع «**نبيل الحاوي**»، بنظرة سريعة لـ«**ليلى**» وطريقة لبسها، وعطرها أدرك أن هذه المرأة تسعى إلى إحداث تأثير معين في هذا المحيط السكني، تُرى ماذا تريد؟ سريعًا ألقى «**كمال عمر**» السلام، وفتح حوارًا دون ترتيب، عرفهما بنفسه على أنه جار يعمل بشركة التسويق التي تقع أسفل مكتبها، كانت «**ليلى**» تعتقد أنها أثّرت في ذلك الموظف كما تؤثر في غيره من الرجال بأنوثتها الطاغية، اعتقدت أنه من خلال هذا الموظف يمكن غزو الشركة لعلها تسوق أبراجها السكنية، ربما لم تتحمس للتعامل مع «**كمال عمر**» ؛ لأن ملابسه كانت بسيطة، وذقنه طويلة، فهو عادة يفضل أن يترك ذقنه بدون حلاقة لمدة أسبوعين أو ثلاثة كل عدة أشهر؛ ليريح بشرته من شفرات الحلاقة.

لم يُعرْ «**كمال عمر**» هو الآخر«**ليلى**» اهتمامًا، تملكه هاجسًا بأن هذه السيدة بوابة للمشاكل. فكل همه هو العمل، ومنذ تعيينه بالحكومة لا يترك فرصة لزيادة دخله إلا طرقها، كان يجرب التجارة من آن لآخر، تارة يربح، وتارة يسترد ماله البسيط بالكاد، ومنذ بضع شهور قرر أن يجرب حظه في تجارة مواد البناء، مع شريك له، ودور الشريك أن يدفع رأس المال، ومهمته التسويق، مقابل نصف الأرباح.

في اليوم التالي وهي تهبط من سيارتها قابلها «**كمال عمر**» مصادفة، وعرض عليها توريد بعض مواد البناء إليها، رحبت «**ليلى**» بالعرض، وتم تبادل أرقام التليفونات، فهي تشتري مواد خام من السوق، ولن يضيرها شيء في أن تشتري بعضها منه؛

لعلها تستطيع أن تنفذ إلى صاحب شركة «**الأحول للتسويق العقاري**» من خلاله، لتسويق عقاراتها الراكدة.

طلبها «**كمال عمر**» هاتفيًا فيما بعد ثلاث مرات على فترات متفاوتة، وكانت تدعوه إلى المكتب للتفاهم، ولم تكن قاطعة، وكان كلامها يدل على مراوغة، فقرر إرجاء التعاون معها، عندما توجس منها، ومضت الشهور وبعدها نقل صاحب شركة التسويق مقره إلى «**مدينة نصر**»في أحد أحياء القاهرة، ولكن«**طلعت الأحول**»ذات مرة عندما كان يمر على أبراج «**ليلى**» بشارع الهرم أعجبته، فقرر شراء وحدة سكنية بها وأوكل الأمر إلى «**كمال عمر**».

اتصل بـ«**ليلى**» وعرض عليها الأمر وأخذ يسألها عن الأسعار، فبدأت تراوغه وتعمدت ألا تقول أي سعر وذلك لضمان عدم هروبه، فهي تريد أن تجعل الأمر سجالًا، وكانت تتكلم بطريقة أقلقت «**كمال عمر**»، فبعد المكالمة قام بمسح كل أرقامها من على تليفونه الجوال؛ أدرك أنه سيكون بين مطرقة «**طلعت الأحول**» البخيل، وسنديان «**ليلى**» تلك المرأة الطاووس؛ فآثر السلامة وتملص من المهمة، وأخبر ا لمدير أنه لا يعرف أي شيء عن هذه الأبراج، وظلت«**ليلى**» تنتظر أن يتصل بها دون جدوى.

ترك «**كمال عمر**» صاحب الشركة لشدة بخله، قبل أن يعلن «**طلعت الأحول**»فصله، وبعد عام تقريبًا فوجئ برسالة من «**ليلى**» تطلبه لتوريد بعض المواد الخام لتشطيب آخر عمارة، كان اسمها أسفل الرسالة هو الذي ذكره بها، اتصل بها وتم تحديد موعد، وعندما ذهب لمقابلتها لم يجد أحدًا سوى السكرتيرة التي جعلته ينتظر لبعض الوقت، مر ربع ساعة، وظن أن «**ليلى**» تفاوض عميلًا بالمكتب.

ولكن عندما دخل لم يجد أحدًا خارجًا من عندها، أدرك أن

ذلك الأمر تمثيلية، أوسياسة، تتبعها لتعطي إيحاءً لزائريها بأنها ذات أهمية لدرجة أنها مشغولة عن لقائهم، دخل المكتب فوجده فخمًا، مؤسسًا بطريقة مبالغ فيها، أدرك بفطرته كيف تفكر هذه المرأة؟ خلال الحوار فهم شخصيتها، أدرك أنها طيبة من التمثيلية المكشوفة، وتركه ما يقرب من 10 دقيقة ينتظرها، وهي في الأصل لا تفعل شيئًا، وأدرك أنها عنيدة ؛لأنها بعد عام مازالت تذكره، واتصلت به لعله تسوق ما تبقى من وحداتها السكنية، وأدرك أنها ذكية في عرض نفسها كامرأة، وهذا يجعل من يتعامل معها ينسى كل شيء سوى أنه أمام أنثى حقيقية.

كان كلام «**كمال عمر**» معها مختلفًا، وبسيطًا، وصادقًا، وعندما لمست طعم الصدق في حديثه، فتحت له قلبها دون ترتيب، فوقع الرجولة على قلب الأنثى كالسحر، انساب الكلام على الألسنة كأنه الماء العذب يتدفق من نبع الصفاء، نسي كلاهما سبب اللقاء، وكانت الذبيحة تريد الفضفضة، وتفلت منها بعض ما تعاني دون حرج، وما كادت أن تمر الدقائق حتى شعرت براحة غريبة بالحديث معه، كان مقررًا للقاء خمس أو عشر دقائق ولكنه استمر ثلاث ساعات، ودونما ترتيب، طلبت له «**ليلى**» فيها الشاي ثم القهوة ثم عصيرًا، مع ترحيب حار.

ربما شعر بصدمة وحزن عندما أبلغته أنها مريضة، وتعاني من بعض مشاكل بالكلية اليمنى، فمع أن الطب أصبح متطورًا وتفتيت الحصوات أصبح أمرًا هينًا، حزن لمرضها دون أن يدري ما السبب، وأخذ يواسيها،وخصوصًا أنه جرب نوبات المغص الكلوي، ربما شعرت بدفء المواساة، وانصرف وتم تحديد لقاء ثان، كانت ليلى في بدية الأمر عندما يطلبها كمال ترفض فتح الجوال لتلقي المكالمة حتى لا تكلفه، وتقوم هي بالاتصال، تطور الأمر إلى أكثر من لقاءين كل أسبوع، تعددت اللقاءات،وكانت تطول لفترات طويلة كاللقاء الأول.

شعر«**كمال عمر**» أن «**ليلى**» بدأت تستريح له، وتشتاق لرؤياه، فكانت قبل أن يدخل تفتح حقيبتها، وتخرج البارفان، وتعطر نفسها، وتصلح ماكياجها في المرآة، كان الوقت الذي ينتظر فيه قبل الدخول تقوم فيه بإعادة ترتيب مظهرها، كان يضحك في سره فهو لا يمتلك شيئًا يمكن أن يمنحها إياه، فكان لا يترك فرصة إلا ويذكرها أنه يسكن في شقة صغيرة، وفقيرة، ودخله محدود ويعيش بالكاد، ربما أراد أن يقول لها لا داعي للتكلف فلست رجل أعمال يمكن أن تربحي من ورائه.

ربما نسيت «**ليلى**» لغة الانتهازية لبعض الوقت، وكانت تفتح قلبها وتتكلم عن مواقف وأحداث لم تقصها على أحد من قبل، كانت تشعر براحة حقيقية، لم تكن تتصور أن هذا الرجل البسيط سيمنحها تلك الراحة، وهو أيضًا كان يشعر أنها تحمل أطنانًا من الهموم، كان يضربه الألم حزنًا عليها، لملامساتها قلبها بقلبه،وسمع صرخات عيونها تزرف آلامًا، تمنى أن يقتل أوجاعها ببقايا عمره، وكان يتصور كلما قصت عليه أقصوصة من ماضيها الحزين؛ أن هذا الماضي ربما هو الثعبان الذي كان يراه كابوسًا مرعبًا في فترة شبابه المبكرة، وكان دون أن يدري يتخيل أنه يركب حصانه الخشبي ويقتل هذا الثعبان بالسيف كما كان بالحلم البعيد، ولكن الواقع يجذبه فيبتسم لسذاجة الفكرة، ففي عصر الذرة والتكنولوجيا لم يعد للسيف والحصان دورًا في المنازلة، وعندما تسأله عن سبب بسماته، كان يخجل أن يتفوه بما دار بخلده فيتبسم أكثر، فيضحكان دون أن يعرف أحدهما سببًا للضحك.

خرجت معه عدة مرات، وفى ذات مرة وهي بصحبته في أحد معارض تسويق مواد البناء، تجلت المرارة في نبرات صوتها، وأفصحت عن عدم ثقتها في المجتمع، أدرك أنها تعرضت للقهر والإيذاء البدني والنفسي من قبل الرجال.

يحرص «**كمال عمر**» على ألا تسبقه عند هبوط درجات السلم، ظنت أنه يفعل ذلك من واقع تعرفه على علم الإتيكيت، فوفقًا لهذا العلم يهبط الرجل أمام المرأة حتى إذا وقعت يتلقاها، وهي تصعد السلم يمشي خلفها لذات الغرض، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لكمال، كان يهبط أمامها حتى لا ينظر إلى مؤخرتها الساحرة من الخلف، ويتعلق بها جنسيًّا، علم من الوهلة الأولى أنه لو سيطرت عليه من هذا الاتجاه لن يستطيع المقاومة، ونجح في ذلك فهو يعلم جيدًا أن من يقع في ذلك الفخ لن يستطيع الفكاك منه.

كانت تملك رغم كل شيء جمالًا يأخذ الألباب، كان صدرها يثير دهشته ليس لأنه جميل ومشدود، ومغر، لكن للمبالغة في شده، فهو كان قائم الزاوية، وعموديًّا على القفص الصدري، كان يريد أن يحذرها من المبالغة في شده ؛لأن الأجهزة المستخدمة في ذلك قد تسبب سرطان الثدي، وكان يخجل أن يطرح هذا الرأي، أيضًا كان لا يرضى عن المبالغة في استخدام أدوات التجميل.

كانت تفسر بعض نظرات «**كمال عمر**» إليها كشغف جنسي نحوها، ولكن هذا لم يكن الواقع لم يستطع أن يفكر فيها بهذا الشكل، ربما لأنه أدرك بحاسة لا تخطئ أن السلاح الأنثوي لديها يهدف تدمير مقاومة الرجل؛ تمهيدًا للسيطرة فيما بعد.

استشعر ذلك عندما عزمته على تناول الغداء، ربما لاحظ مدى تهكمها على العاشقين وهو معها في المطعم السياحي، بل لاحظ عدم اتزانها، فعن طريق توجيه أسئلة بطرق غير مباشرة لها عرف جزءًا كبيرًا من ماضيها.

اكتشفت «**ليلى**» في «**كمال عمر**» وفاءً لم تعهده من قبل في أحد، قضت يومًا كاملًا معه نسيت فيه كل همومها، قبل ذلك

بأسبوع واحد في أحد الدعوات المسائية، و«**كمال عمر**» يجلس بجوارها في السيارة، لاحظ أن «**ليلى**» بدأت تفصح عن بعض آلام الماضي، شعر وقتها بحجم المعاناة، فهي تمتلك قوة جعلتها تتحمل وتقاوم الانهيار النفسي الكامل.

لقد لمس «**كمال عمر**» الجانب المشرق بداخلها، فرغم تمردها تملك روحًا شفافة، ورغم عنادها لديها قلبٌ حنون يمكن ترويضه، ورغم ماديتها الظاهرية روحها حالمة بالسعادة، ولو ضحت بكل ما تملك، وعلى غرة ودون ترتيب وجد قلبه قد انفطر إلى نصفين، وكأن «**ليلى**» قد دخلته وانطبق عليها من جديد، حتى لا يخرج، كان يعلم أن حبه نحوها بدأ ينمو كما تنمو الزهور في الربيع، ودليل ذلك أنها لا تمتلك ما يغري العاشق الجديد، فمن وجهة نظره أنها في العد التنازلي؛ فطالما أن المرأة قد غادرت سن الأربعين عادة ما تفقد الكثير من مقاومتها، إذا كان رأس مالها الجسد فقط، فمرور الزمن لا يبشر بمستقبل للمتعة، هو يعلم أن قربه منها لن يكون نزهة، ولكن كيف له أن يبوح لها بهذا الحب الطاهر، وهو يرى أن معاول كثيرة سوف تهدمه، وكيف لمثل هذا الحب أن قُدِّر له الحياة أن يحيا على أنقاض الآخرين، الاثنان متزوجان، والمسافة جد بعيدة، بيد أن الأرواح متعانقة. فمجرد الاعتراف مشكلة، هل تستطيع «**ليلى**» أن تصدق أن هناك حبًّا بعد أن ضاع مستقبلها باسم الحب.

٢٣- المعركة

كانت «**ليلي**» تشعر بما يجول بخاطر المتيم، وتقاوم الاستسلام للحب من جديد، فهي تعيش في صراع رهيب بين آلام الماضي، ونداء الحب الذي أشرق على شرفة عمرها، وكيف لها أن تقرر، ف «**كمال عمر**» قد يكون تجربة فاشلة كالتجارب السابقة، وقد يكون وهمًا، فربما النزوة قد ألمت به ويريد أن ينتزع منها رغبته انتزاعًا، ومن الوارد أن تكون لوعة القناص هي من تحركه كغيره من الذئاب السابقة، فمعسول الكلام يتبدل عندما تقع يد الجلاد علي رقبة الذبيحة، ويتحول زخرف القول بعد الغزو إلى طعنات في القلب.

فهي لم تر من الرجال غير القهر، ربما كانت ترى أن الحب والجنس وجهان لعملة واحدة، ولكن القضية ليست كذلك، وإن كان الارتباط بينهما شديد الصلة، ربما المشكلة تكمن في أيهما الذي يبدأ أولًا، فإذا كان الجنس هو محدد العلاقة بين الطرفين، فمن الصعب في حالة عدم إشباعه أن يستمر التواصل.

ولكن إذا كان الحب هو مفتاح العلاقة بين القلبين، سوف ينقلب الأمر رأسًا على عقب، سوف تنمو العلاقة الإنسانية بين الأرواح لتزرع السعادة فوق الأرض، ويطفو المحبون فوق أجنان المتعة، يحلقون كالطير المغرد في حدائق الهائمين، ولا يتوقفون عن قطف الهناء من ثغر الزمان قطفًا، بالحب سوف تثمر المشاعر أغصانًا للمودة فوق الدنيا، ومن أورق الغصون سوف يسقط المسك المعتق؛ ليعطر الأنفس، فلا تشعر بلفح الخبث أبدًا من أفواه الماكرين.

يخوض «**كمال عمر**» تجربة صعبة، وربما تكون خاسرة، فهو يضع نفسه في مواجهة أخطاء السنين العجاف، و«**ليلى**» طالما كانت تنتظر منه أن يبوح، وكانت دائمًا ما تقول لنفسها

هذا الرجل تأخر أكثر من اللازم في هذا البوح.

لعلها هذه المرة كانت متأرجحة بين الزهو والخضوع، تزهو بأنها ضمت رجلًا لقافلة الرجال الذين عذبوها، وهذا واحد منهم قد قهرته انتقامًا من أقرانه، وتخضع لدفقات حب كما الجنين يتحرك في أحشائها، فما ذنب هذا المسكين في الهوى بما اقترف غيره، كانت تشعر بالميل نحوه، كما تميل الأشجار تحضن الأرض من شد الريح، في هذا الخريف ريح الحب الشديد هزت جذورها هزًا، فمالت لا تستقيم إلا معه، ومع ذلك مازالت متأرجحة، وخائفة، ومنهارة، ومترددة.

كان اللقاء الحاسم عندما قرر «**كمال عمر**» البوح بما يعتريه من مشاعر، كان يرى من خلال تحليله لبعض المواقف أنه ربما يكون له مكان في قلبها، ولكنه يشعر أنه في حالة مواجهة خطرة مع امرأة مقهورة وجريحة، فآلامها تأبى أن تندمل، كان يحاور أنثى تمتلك قدرة على استخدام الألفاظ التي تحمل إشارات مزدوجة، كانت تحرص على عدم قول كلمات الحب في عبارات صريحة، ولكنها كانت ترسل أحيانًا- ورغمًا عنها- إشارات تشي بذوبانها عشقًا.

كان «**كمال عمر**» يفهم ويميز بين الكلمات الصادقة، والمصطنعة بقصد السيطرة على الفريسة، ولم تكن الكلمات المصطنعة ذات جدوى بالنسبة له، كان يقرأ ويفسر فقط بعض التصرفات غير الإرادية، والتي يمكن أن يتم ترجمتها إلى أسمى معاني الحب، كانت تلك التصرفات والمعاني هي ما يلفت نظره، وكانت لا تصدرها نحوه إلا في أوقات الصفاء النادرة، عندما تخرج بالحديث الدفين من أعماقها أمامه دون حرج، وفي مثل هذه الأوقات كانت تعود إلى طبيعتها الأولى، فتشرق بين الكلمات صورة «**ليلى**» الحالمة، البريئة، الطاهرة.

كانت تلك الإشارات والومضات النورانية بأعماق الجريحة

تجعلها تقاوم المحنة، وهذا ما لمسه «**كمال عمر**» فقد علم أن الكلام الحاقد على الرجال من خلف قلبها، وربما كان رد فعل لما ذاقته من أسًى، استطاع العاشق أن يميز الخط الفاصل بين الوهم وبين الحقيقة، ويدرك أن مهمته صعبة، فهي في حالة تدفعها لرفض الاعتراف بالحب، نتيجة لقسوة الماضي المرير، وأيضًا تتبنى بعض الآراء السلبية تجاه الحب، فبعضهم يقطع بعدم وجوده، ويفسره بتفسيرات أخرى، وذلك هو ما عاشته، فاستقر في ذهنها أن تلك العاطفة مجرد وهم أو خيال، ربما ذلك يتناقض مع الواقع، فهناك الحب والكره.

هناك حب الوطن، ومن أجله يموت الملايين بالعالم دفاعًا عن الأوطان، وعاطفة الأمومة التي تحرق الأمهات عمرها فيها؛ من أجل أن يحيا الأبناء في رغد، وحب الخير؛ إذ يهب الأسوياء أموالهم، وأوقاتهم للفقراء دون مقابل، وغيره الكثير، أما الحب بين الرجل والمرأة فهو جزء من هذا الحب، ولن يموت إذا كان حقيقيًا. هناك أمثلة وحقائق تاريخية منذ أن خلق الإنسان على الأرض تؤكد وجود هذا المعنى الرقيق.

اشتعل صراع الاعتراف والنكران للحب من جديد بين «**ليلى**» و «**كمال عمر**»، وعادة مثل هذا الصراع لن ينتهي، فهو قائم، ومستمر بين الرجل والمرأة؛ ما دامت الحياة قائمة على ظهر هذا الكوكب.

مكمن الخطورة أنه يتم التعبير عن الغريزة باسم الحب، فحتى وإن ارتبطت به، فهي كالماء ترويه، وفي ظل التوافق الروحي ترفع النشوة البشر إلى لذة أكبر.

لم يكن الطرفان يتوقعان تطور الأمور على هذا النحو، فـ «**كمال عمر**» كان مجرد درجة سلم، سوف تصعد «**ليلى**» فوقها للوصول إلى صاحب شركة «**الأحول التسويق العقاري**»، و«**ليلى**» بالنسبة له كانت مجرد مشتري لمواد البناء.

في بداية التعارف كان «**كمال عمر**» يعلم أن «**ليلى**» قد سعت إلى استغلاله في التسويق مقابل نسبة، وبالفعل استطاع أن يحضر لها زبونًا وبعد فترة صاحب شركة التسويق البخيل، كانت عقب كل صفقة تخرج له عمولته، كان يرفض على الرغم من تدهور وضعه المادي، كانت تعتقد أن ذلك ربما يكون خجلًا منه أو محاولة للتقرب والتودد، في حين أن الأمر لم يكن كذلك، كان «**كمال عمر**» يريد أن يربك خطط «**ليلى**» لاستغلالها له كسُلم، وكان ترفعه عن أخذ العمولة رسالة ربما سوف تصل إليها يومًا ما، لتؤكد أنه كاد أن يفهم كل التفاصيل، ربما ستقول في نفسها كما يقول المثل الشعبي: «وفرت»، ولكن عندما ستفكر في الأمر من جديد، سوف تكتشف أن ذلك الموظف البسيط كان حصيفًا، وكان يدرك من الوهلة الأولى مرادها، وماذا كانت تقصد، هنا فقط سوف تشعر بالهزيمة النفسية، وسوف يعريها هذا الموقف أمام نفسها، فـ «**كمال عمر**» ليس رجلًا سهلًا كما كانت تعتقد. ربما أدركت هذا المعنى ولكن بصورة أقل وضوحًا.

وفي يوم أطول من الليل البهيم، حان وقت الاعتراف بالحب، وظل «**كمال عمر**» وهو الفصيح يتلعثم لمدة ساعة ونصف، مترددًا في أن ينطق،كلمة فوق طرف لسانه كانت أثقل من الهرم، ولا يقدر على دفعها في بضع ذرات من الهواء، مكمن تخوفه من سوء الفهم، فقد تعتقد أنها نجحت في قهره بجسدها الناري، وصدرها الطازج، وعيونها العميقة الساحرة، أو بزينتها الصارخة، وإن كان كل ما سبق من عوامل الجذب، ولكنه يدرك أنها إذا اعتقدت ذلك فلن تحبه أبدًا؛ لأنه سوف يكون امتدادًا لطابور الغدر الذي دمر حياتها عندما التهموها باسم الحب، فقد كفرت بالغرام عندما تلقها أصحاب الغزائز المكبوتة للتنفيس عن رغباتهم، فاقتحموها عبر بوابة الحب الزائف.

عشق الغريق روح الغريقة، وتغلغلت في أعماقه، كما تسري الحياة في الوليد عند المخاض، فبكى عندما غادر الظلام فرحًا بالنور، ترى هل تعي ذلك أم ستئد هذا المولد خنقًا؟ كان يدرك وهو على شفا الغرق أنها تنتقم من الرجال، شعرت هي الأخرى بالحرج، وعندما غلف الصمت المكان، ولاحت بوادر الغيوم أمامه حاولت «**ليلى**» مساعدته على الاعتراف، كانت تشعر بلذة وهي ترى الصدق يكسو ملامح الوجه، وصوت «**كمال عمر**» كما صوت الطفل الذي يلتقط الحروف في بداية الكلام، وفجأة نطقها:

- **كمال**: بحبك.
- **ليلى**: (**تصرخ تهكمًا**) حب إيه؟ لا يوجد شيءٌ اسمه الحب، أنت واهم.

بعد أن استلت منه الاعتراف الذهبي، وقفت فجأة تصرخ وتصف ذلك بالأوهام والمرض طالبة من «**كمال عمر**» أن يفيق من هذا الكابوس. انقضت عليه، وبدأت تسفه ذلك الشعور انتقامًا من الماضي في صورة الحاضر، انتابتها حالة من الصراخ في الحديث كالجريحة تخلع من جسدها السهام.

ربما كان الرد المتوقع هو أن تتوافق معه، أو تعتبره فقط أخًا أو صديقًا، ولكن ثورتها كانت استدعاءًا للماضي، كانت تشعر أنها تواجه «**ناجي**» الذي دمر حياتها، وربما كانت تهاجم «**ناجي**» الذي رحل من الدنيا في شخص «**كمال عمر**» الذي مازال حيًا، كان التوتر سيد الموقف، بعدها جلست «**ليلى**» تحاول لملمة جراح الضحية التي ذبحتها قربانًا في محراب الحب.

ربما شعرت بوخز في الضمير نتيجة لقسوتها مع الغريق، حاولت ترضية «**كمال عمر**» ولملمت جراحه، بدأت تتكلم بلين ورقة، قدمت له بعض قطع الشوكولاته، لم يدر كيف أخذها ووضعها في جيبه، كان غائبًا عن الوعي تمامًا.

وفجأة أخرجت كاميرا ديجيتال، وطلبت منه مساعدتها في ضبطها، كان متوترًا، أمسكها في يده دون أن يراها، لم ما يدر ما بيده، أعادها إليها وهو غائبٌ عن الوعي، برر ذلك بعدم معرفة طريقة تشغيلها، في حين أنه كان يمتلك كاميرا من نفس النوع، يبدو أنها كانت تريد التقاط صورة لـ«**كمال عمر**»، بعدها تظاهرت أنها تحاول إصلاحها، وظلت تعبث بها لحظات، وطلبت أن تجربها، والتقطت له صورة، نظر كمال في اتجاه الكاميرا دون أن يدري ما يحدث، كان خارج حدود الزمن، قامت «**ليلى**» بالتقاط أكثر من صورة له، لم يكن يشعر حتى بضوء فلاش الكاميرا وهو الذي يخطف الأبصار.

من جلال الموقف لم يعي «**كمال عمر**» معنى هذا التصرف في حينه، وبعدها عاد إلى البيت وقد أصرت على توصيله للمنزل، كان محبطًا، فلم يكن يتصور قسوة الرد، شعر أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت، لا يستطيع أن يتواصل مع أحد، وقضى ليلته مؤرقًا ليس بنائم ولا مستيقظ، عاد يراجع اللقاء بدقة، وفجأة عاد ليتذكر قصة اصطناع «**ليلى**» عطل الكاميرا، لماذا قامت بالتقاط صورة له، هل تعد أرشيفًا تجمع فيه صور الضحايا، أم هو حب تخشى الإفصاح عنه، ربما هدأت نفسه قليلًا، فلا يمكن للمرأة أن تحتفظ بصورة رجل لا تحبه، ولكن آلام الماضي ربما كانت هي السبب في الممانعة بالاعتراف، كما أن وضع «**كمال عمر**» حرجٌ، وكان يقدح ذهنه بالتفكير، فربما كانت قسوتها قمة التعقل، فالوضع بالغ التعقيد، فكل منهما متزوج والأمر ليس بهذه البساطة، الأمر في النهاية اعتداء صارخ على حقوق آخرين.

عادت «**ليلى**» وهي سعيدة بهذا الحب،ولكنها مترددة في التجاوب معه، كانت ترى أنها في هذه المرحلة السنية يجب ألا تنساق وراء العاطفة، وكان صوتٌ داخل أعماقها يعنفها ويطالبها بالكف عن كل أنواع التحرر، بدأت في مراجعة

نفسها من جديد، لم تنم. كانت تشفق على «**كمال عمر**» من قسوتها معه، وأيضًا كانت تجد نفسها قد تعلقت به، كانت تريد أن تهدئ من روعه، طلبها «**كمال عمر**» باليوم التالي، كان مدعوًا على مؤتمر في شيراتون القاهرة في أحد مؤتمرات التسويق، ودعاها لقضاء اليوم معه، رحبت على الفور، وذهبا سويًا، وكانت رقيقة معه إلى أقصى درجة، لم يعتد هذه الرقة من قبل، كانت رغم آلامها النفسية تشعر بالمتعة، وأثناء تجولها بالفندق معه وقفت أمام المرآة وطلبت منه أن ينتظر لالتقاط صورة معه، وجهت الكاميرا إلى المرآة، والتقطت عدة صور لهما سويًا.

كان اليوم ممتعًا للطرفين وفي رحلة العودة كانت أكثر انفتاحًا وسعادة، وبدأت يدها تلمس جسده بحركات خفيفة غير إرادية، تارة على فخذه وتارة تربت على كتفه، كان «**كمال عمر**» يشعر أنه داخل أعماقها، فالمرأة لا تلمس رجلًا إلا إذا كانت تحبه، لم تكن تلك اللمسات السحرية تحمل معنًى خارجًا أو تعبر عن سلوك منحل، بل كانت تعبر عن حالة رومانسية نادرة، ربط بين الصورة الأولى التي ادَّعت فيها عطل الكاميرا والرغبة الصريحة في التقاط صورة معه داخل الفندق، هذا الموقف من الصعب أن يفسر بأي معنى سوى الحب، وأيضًا صرحت بذلك لفظيًا مرتين، ولكن على مضض وبتردد، ولكنه كان يقيس المشاعر بلغة الأحاسيس وليس بلغة الكلام، في أثناء العودة طلب منها أن تحدد موقفها، طلبت منه أن يمهلها يومين أو ثلاثة كي ترد عليه.

عادت «**ليلى**» محطمة فهي في صراع جديد بين حب بدأ يقتحمها دون سابق إنذار، وبين الخوف من تكرار تجربة الماضي، فهي لن تحتمل فشلًا آخر، ربما كان هذا هو سبب المقاومة العنيفة والمستميتة التي تبديها. كان زواجها من «**سامي السلاموني**» اختيار العقل، وعادة ما تكون المشاعر مصدرًا للتواصل في العلاقات العاطفية.

كانت تشعر بنفور من زوجها رغم طيبته، فهو لا يستطيع أن يملأ الفراغ أو يعالج الآلام، اشتعل الصراع عليها، قررت أن تذهب إلى «**ريهام**» أختها لتأخذ رأيها، كانت أختها تقليدية، ولا تستطيع أن تفهم ما يدور بخلدها، فسرت لها عدم التوافق مع «**سامي السلاموني**» ربما يرجع إلى أن المرأة في فترات الدورة الشهرية تكون مضطربة، أو أن النساء لا يقدرن نعمة الرجل المطيع، وحذرتها من أي تقارب مع «**كمال عمر**»، ووصفته بالرجل المستهتر.

كانت «**ريهام**» من وجهه نظرها تحاول إنقاذ أختها من أي مغامرة جديدة، قد تحرمها من الاستقرار، وهي مقبلة علي أعتاب الخريف، فلم يعد هناك وقت للمغامرة، و«**ليلى**» أيضًا كانت تخشى أن تقدم على أي خطوة تجعلها محل انتقاد من العائلة، فهي كثيرًا ما تدعي أنه لا يهمها أحد، بيد أن رأي الآخرين فيها رغم تظاهرها بعدم الاكتراث به؛ يزلزلها من الداخل. لا تريد أن تكون محل نقد أو تشريح مرة أخرى، وخاصة من أسرتها، عادت إلى منزلها وقد قررت مقاومة «**كمال عمر**»،وجاء الموعد المحدد لكي يسمع رأيها للمرة الثانية.

ردت عليه بعنف أكبر، وكررت وصفها للحب بالوهم والسراب، كان ردها القاسي متناقضًا مع اليوم الذي قضاه معها، أراد «**كمال عمر**» أن يخرجها عن شعورها لعل الحقائق تتساقط منها، فقرر أن يتلف أعصابها لكي تفقد السيطرة عليها، لعله يكتشف شيئًا ما، بدأ يحذرها من آثار ما تعانيه من المرض بل أخبرها أنها سوف تفقد جمالها وأنها معرضة للفشل الكلوي، بالطبع كان يبالغ عن قصد، وقام بعرض بعض المعلومات بطريق تأخذ الشكل العلمي.

أدرك أن تحليل شخصيتها لن يتحقق إلا بخروجها عن الهدوء، كان يهدف لدفعها نحو التوتر وفقدان السيطرة على الأعصاب،

وقد نجح في ذلك فـ«**ليلى**» تعتمد على مظهرها في كل شيء، كانت تعلم خطورة الفشل الكلوي، استشاطت غضبًا منه، وهو يخبرها بضياع رأسمالها، ولكنها لم تثر وتماسكت رغمًا عنها، فهي عنيدة.

طور «**كمال عمر**» التعنيف بأن وصفها بأنها إنسانة مادية، هنا خرجت عن تماسكها وصرخت فيه، كان هذا الوصف بالذات هو سلاح العائلة المسمم في نقدها، وكان يمثل رأي ناجي المغلوط فيها، بالطبع توتر الموقف، وتخيلت «**ليلى**» أنها تدافع عن حياتها كلها، وبدأت تصرخ.

- **ليلى**: كلكم تقولوا هذا عني، حرام عليكم.

تأكد أن «**ليلى**» مازالت تخاطب الماضي، وتعيش آلامه، وأنه فتح جرحًا هو في الأساس قمة المرض النفسي لديها، التهب الموقف وقرر الانصراف، تأكد من هواجسه، ولم يكن من الممكن الكلام في أي أمر بعد ذلك، دخلت ليلى مرحلة هياج شديدة فقدت فيها السيطرة علي الذات، تركها في بركان خوفها من المستقبل والمرض وآثاره غير المحمودة، وأيضًا بسبب اتهامه لها بأنها مادية.

لم تكن كذلك، وهو يعلم هذا، فإن كانت تحرص على جمع المال لتحقيق طموحها في الثراء المشروع؛ هذا ليس بعيب، فالمادي لا يهتم إلا بجمع الأموال فقط، ويحرم نفسه منها، أما هي فتحرص على الإنفاق ببذخ، كان بيتها بازارًا سياحيًا، ومكتبها تحفة أثرية، كانت تحب التجمل، والجو الكلاسيكي، وتنفق في أحيايين كثيرة بسخاء، تعطي البواب أجرًا شهريًا يساوي كل ما يحصله من ١٥ شقة، كان كل من حولها يتهمونها بتلك التهمة دون إدراك، كانت تدعم بعض أقاربها بكرم زائد، والمادي عادة لا يفعل ذلك.

هبط «**كمال عمر**» من عندها، وهو بين شعورين متناقضين،

الأول هو الفرح لأنه أوجعها كما أوجعته في اللقاء السابق، وشعور آخر بالحزن لأنه لم يكن يقوى على أن تتألم بسبب كلامه، يحبها بصدق، والمحب لا يقبل أن يؤذي حبيبه، ولكنه كان يريد أن يعرفها، والإنسان عندما يغضب يكون من السهل تحليل شخصيته.

اتصل في اليوم التالي بها وأخبرته أنها لم تتم من جرٍاء تلك الموقعة، اعتذر لها برقة، اعتبرت أن ما قاله كان غيظا منها؛ لأنها لم تستجب لمشاعره، قبل «**كمال عمر**» منها هذا التفسير إرضاء لها، ولكن ماذا يفعل معها، إنه يريد إنقاذها حتى ولو كانت لغيره، هذه هي قضيته كيف له أن يساعدها على الفرار من الماضي؟ وكيف يساعد نفسه على الهروب من الحب الذي تخلل دمه؟.

٢٤- الحب الكبير

أصبح الزمن ضنينًا بالأمل، وكلما مُدت يدًا لتمسك بأحد أطرفه ارتدت قابضة على الوهم، ولا يريد الحائر أن يبسط كفيه حتى لا يفجع بالواقع الأليم، ربما كان العيش ولو لسويعات في أحضان الحمل الكاذب أهون من اليأس القاتل، كانت الدنيا متشحة بالسواد الحالك.

شعرت «**ليلى**» بالندم علي تبني قضايا بعض الفاسدين، والدفاع عنهم بالمحاكم، كانت تبرر لنفسها هذا التحالف بأن قضاياهم كانت شبه محسومة، وأوراقهم محكمة التزوير، وبعض المزايا الآخري تم تقنينها بلوائح وقوانين، ولكنها لم تبرر لنفسها الدفاع عن تجار المخدرات، حتى وإن كان الدفاع حقًا مشروعًا في كل عمليات التقاضي.

تأكدت أن من سرق منها الحياة هم الذئاب الذين دمروا حلمها في الأمومة، أرادت أن تتطهر، ربما كان هذا الشعور الجديد بالنسبة لها بمثابة طريق جديد لم تسلكه من قبل، فمن سرق الوطن كمن سرق شرفها.

ومع هذا لم تنس «**كمال عمر**»، تتأرجح في موقفها، وتقاوم التجاوب في المشاعر نحوه بشراسة، وهو لم يفقد الأمل في التواصل معها، في أحيان كثيرة كانت تتظاهر بالموافقة على آرائه في حين أنها كانت تجاريه، وكانت تكذب عليه في بعض الأمور، لمس هو ذلك في بداية الأمر، اعتبر الأمر نوعًا من التجمل، فعلى سبيل المثال كانت عندها سكرتيرة نشيطة تدعى «**أمل نور**» خفيفة الظل، جميلة، وذكية، تركت العمل، وعندما سألها عن السبب أوضحت أنها لا تريد الاستمرار وتود أن تجلس في البيت، أدرك أن الخلاف كان على الأجر، بعدها بعدة أسابيع ذكرها بها، وكأنه يتحدث عنها لأول مرة.

كمال: كان يجب أن توافقي على زيادة مرتب أمل.

ليلى: عندك حق، هي سكرتيرة لا تعوض.

كانت تنسى بعض التفاصيل التي تقصها عليه، ومرة أخرى وعدته بأن تعزمه على تناول الغداء في مطعم شهير، وأخذت تصف له جمال المكان، وأبلغته أنها كانت بالأمس هناك، فاجأها كمال بسؤال مباغت...

- **كمال:** مع من؟
- **ليلى:** (**تعلثمت وتغير وجهها، فلم تتوقع هذا السؤال**)، كنت مع «**شكري**» أخي.

استشف أنها كانت مع رجل آخر، وبعد عدة أيام التقاها، وتكلم عن مشاكل الغربة، وعدَّد مساوئ السفر للخارج؛ لأنه يحرم الإنسان من أهله وأصدقائه وضرب مثلاً بأخيها، وفي خضم الحديث بدأ يستدرجها، وطرح نفس السؤال بصيغة مختلفة:

- **كمال:** أظن أن شكري يعاني من الغربة.
- **ليلى:** نعم. وكثيرًا ما يشتكي من وهج نارها.
- **كمال:** منذ متي لم يأتِ لمصر؟
- **ليلى:** منذ العام الماضي.

كان الأسى من غربة أخيها يملأ قلبها شوقًا نحوه، صبت جام غضبها على ندرة فرص العمل، فلو أن الأمور تسير كما ينبغي ما غادر البلاد من أجل فرصةٍ مجزية، كان «**كمال**» يسأل لماذا تكذب؟ ربما في البداية كانت تخطط كالعادة لقهره، كنوع من السيطرة على الرجال للاستفادة به في تسويق بعض الوحدات السكنية، تصورت أنه يمتلك علاقات قوية بشركات السمسرة، ولا مانع من إخضاعه بأسلحة الأنثى.

ولكن بعد أن تأكدت من حب «**كمال عمر**»، لم تعد تتورع في إخفاء علاقتها بالرجال، أوخروجها معهم، فلن تسمح لأحد

أن يسلبها حريتها، حتى زوجها لا يفعل ذلك.

لم يكن هذا ما يزعج «**كمال عمر**» فهو يقدر حالتها النفسية، ويعلم الكثير عنها من خلال تحليل تصرفاتها، كان بوسعه جمع تحريات دقيقة عنها، ولكنه رفض ذلك، وفضل أن يعرفها بقلبه فقط ويحكم عليها بعقله، ربما كانت النتائج متقاربة، فالشكل العام الذي كونه عنها حقيقي، ولا يختلف عن الواقع كثيرًا، فبعد عام من اللقاءات المستمرة، بدأت تتهرب من لقائه، كان لها باقي حساب عند أحد العملاء، وكان هو الوسيط في تسلم مستحقاتها المالية، كان يتعمد أن يترك مستحقاتها في المكتب.

لم يرد أن يكون ذلك هو سبب اللقاء، فلم يغب عن باله أي احتمال يجعلها تتواصل معه، وبعد ثلاثة شهور من التملص من أي لقاء، فوجئ بها تتصل وتدعوه لتناول الشاي معها، كان يحتاج لمثل هذا اللقاء، لقد اشتاق إليها بشدة، ذهب فوجدها مشرقة كالشمس، ونهضت من على مكتبها، واستقبلته بحرارة، فوجئ بتغير جديد في شكل ليلى لقد كانت ابتسامتها المشرقة تظهر خلفها أسنانًا ناصعة البياض، قامت بإجراء عملية تبييض للأسنان أصبحت كنجمات السينما، أثنى على ذلك التطور، وكان هو السبب في هذا التحول، تذكر أنه كان دائمًا يسألها بصور متتالية..

- **كمال**: هل تدخنين؟
- **ليلى**: لا.

اليوم قد استدعت كمال كي تؤكد أنوثتها، وتنفي عن نفسها تهمة إهمال العناية بالأسنان التي كانت مائلة للاصفرار، كان اللقاء حارًا ودافئًا، وأطلقت ليلى لنفسها العنان في الحديث عن ذكرياتها بلا تحفظ، **كان «كمال عمر»** في قرارة نفسه يرفض بعضًا من تلك الجرأة، ولكن نقدها قد يجعلها تستدعي

صور الماضي، وأيضًا كان يدرك أن سنها الآن سوف يمنعها إذا ذهبت البحر أن ترتدي المايوه، فالنقد لا يفيد لأن «**ليلى**» تستجيب بالإقناع فقط، وهذا هو مفتاح شخصيتها.

في السابق لم تدرك «**ليلى**» معنى تكرار «**كمال عمر**» لسؤاله المتكرر في السابق، هل تدخنين؟ كان يقصد شيئًا آخر، فكلما كان يسود جو من الصفاء يسألها نفس السؤال.

رآها ذات مرة تهبط من فوق السلم من مكتبها وهي تلف حول وسطها بلوزة صوفية، جاءت بها في الصباح نظرًا لبرودة الجو، وتمسك سيجارة تشربها وهي في صحبة «**نبيل الحاوي**» كان يبدو عليها الانهيار وعدم المبالاة، ربما هذا ما لفت نظر «**كمال عمر**» إليها، وقتها تساءل في نفسه:

- من الذي دمر تلك المرأة بهذا الشكل؟

كان يسألها كل عدة لقاءات نفس السؤال ليختبر مدى صدقها، وهي تظن أن ذلك نقدٌ للون أسنانها المائل إلى الصفرة. لم يشأ «**كمال عمر**» أن يفصح عن سبب سؤاله.

وفي لقاء سابق لاحظ ميل «**ليلى**» للحديث مع شاب صغير، ربما فسر ذلك أنها مازالت لا تشعر بمرور الزمن، تريد حذف ما مر من عمرها لتقف عند سن الثلاثين، تسيطر عليها رغبة في أن تعيش حياتها من جديد، واليوم في لقاء التحدي وإثبات التفرد في الجمال، هي سعيدة عندما أخفت عورة في شكلها، أثناء الحوار الودي للغاية، أطلقت «**ليلى**» العنان لنفسها أمامه، وأخذت تبوح بأحلامها، أنها من الممكن أن تتزوج مرتين أخرتين، مثلما يفعل الرجال، هنا اعتبر كمال أن الأمر نوعٌ من المزاح، ولكنه فوجئ بقولها إنها سوف تتزوج شخصًا صغيرًا في سن الثلاثين ربيعًا.

ربط ذلك الاعتراف بما سبق أن لاحظه في السابق، أن الأمر ليس أحلامًا فقط بل بقايا الألم الذي أصابها، كان يحلل مواقفها أحيانًا على هذا الأساس، وربما صدق حدسه، على الرغم من

أنها كانت تقابل العديد من الرجال على اختلاف مستوياتهم فلم يشعر بالغيرة؛ لأنه رغم وضعه المادي المتردي كان يثق في نفسه ثقة شديدة، ليس من باب الغرور، ولكن نتيجة الاستقرار الذاتي بداخله، ولكنه لأول مرة يشعر بالغيرة، فلا حيلة له أمام الزمن، وهناك من يمتلك الشباب الذي يستحيل عليه امتلاكه، وهي تحلم بشاب صغير، بعد وقت طويل انصرفا وهما متفقان على وعد بمقابلة أخرى بعد يومين لاستكمال بعض المناقشات.

اعتراف «**ليلى**» لـ«**كمال**» بما يدور في خلدها دليل ثقة وأمان وحب، وهي التي نادرًا ما كانت تبوح بما يجول في صدرها لأحد، تجاوز «**كمال عمر**» مرحلة الغيرة وانتابه قلق من نوع آخر، كان قارئًا جيدًا للأحداث، في مثل هذا السن المرأة تتعرض لتآكل طبيعي في الجمال والمظهر، سيطرت عليه بعض الهواجس خوفًا عليها، ربما يضع القدر في طريقها مراهقًا أو انتهازيًّا يستغلها، قريبًا سوف تخسر معظم مقومات الأنوثة ودرجات الإغراء، وربما سيكون المجال الوحيد أمامها للتأثير هو المال، ومن ثم هي معرضة لعمليات سطو محتملة قد تعصف بحياتها، مازالت تئن تحت وطأة الضغط النفسي نتيجة الحرمان العاطفي.

ربما مستقبلًا تندفع لشراء وهم السعادة، وقد ترتبط بشاب صغير؛ ظنًا منها بأنها تعيد الماضي المفقود، شعر «**كمال عمر**» بمسئولية أخلاقية تجاه «**ليلى**»، فالحب هو خوف على المحبوب من الانزلاق، هو ذاته لم يكتشف هذا النبل بداخله إلا عندما عرفها، لم ينم ليلته فلم يقلقه علمه بأنها سوف تقابل رجلًا ألعبان وزير نساء في مساء ذلك اليوم؛ لأنه يعلم أن المرأة لا يمنعها عن الغواية سوى نفسها مهما كان ذكاء الطرف الآخر.

لم يدر كيف يتصرف معها، هو يدرك أنه مع أول نقد لها يمكن أن يخسرها للأبد، لقد أرسل لها رسالة شديدة اللهجة. قال فيها :(**إني خائف منكِ وعليكِ**).

كان يقصد أنه يخاف عليها من عدم وضوح الرؤيا، ويخاف عليها من آثار المرض النفسي الذي يمكن أن يلقي بها في طريق شاب يبتزها في خريف العمر؛ لتكون نهايتها التشرد والتسول، أغضبتها الرسالة، واتصلت به وتكلمت معه بحدة غير طبيعية، لم يستطع أن يفسر ذلك، كان يخشى أن يخبرها أنها تمر بحالة مرضية خشية أن تعتبر ذلك تعرية لها، كان أول الناس الذين يخافون عليها، وأصدقهم في حفظ السر.

طال جفاء «**ليلى**» بعدها، فكانت لا ترد على رسائله أو تليفوناته، وكان يقاتل للتقرب منها، لم ينسها يومًا واحدًا، فهي تعيش بين جوارحه، وهي في ذات الوقت كانت تصارع نفسها، وتعيش في مشاكل مع «**نبيل الحاوي**» وتريد الخلاص من الشراكة في العمل، أدركت مدى استغلاله، وأيضًا كانت علاقتها بزوجها على حافة الانهيار.

تداخلت الرغبة الجامحة لديها، كرهت المال الذي اكتنزته من مهنة المحاماة، فقد اختلط الحلال بالحرام، كانت تفكر بجدية في اعتزال تلك المهنة، هربًا من الدفاع عن الباطل، وقد قررت ذلك، ، بدأ الوضع العام يشغل تفكيرها، وكان "**كمال**" بجوارها يلحظ ذلك فيسعد؛ لأنها تنفلت من سجن الآلام نحو رحابة الأمل، مر عام وهي تتابع كل ما يدور بدقة، كأن شفاؤها مرتبط برفعيد الظلم عن الآخرين.

وبعد عدة أشهر ومن آخر لقاء، التقت بـ«**كمال**»، ولكنه وجدها في حالة يرثى لها، كانت شديد التوتر، صدرها لم يعد قائم الزاوية، ربما هناك أمر جلل، فهي تقاتل من أجل أن تكون مثيرة، لابد أن الأمر جد خطير، أمام تلك الحالة قرر «**كمال**» الانصراف، فلم يستمر اللقاء سوى عشر دقائق، ولكن ما أثلج صدره أنه وجدها تقرأ في كتاب ديني، وهذا مدخلٌ جديد دلفت نحوه.

تركها «**كمال**» حتى لا ينغص عليها حياتها، فالحب أن تتمنى الخير للحبيب، وأن تضحي بمتعة القرب منه حتى تمنحه فرصة للوفاء بعهوده مع نفسه، وفطرته، قيمة الحب إذا تعثر الإرتباط أن تكون طاهرًا مع من تحب. إن الخلاص من آلام العشق لا يتحقق إلا بحب أكبر، وهذا الحب هو حب الله، ثم حب الوطن، والخير.

كان كثيرًا ما يدعوها للصفاء، والتصالح مع نفسها، ويريدها أن تغير مجرى حياتها، وتهجر عالم المظاهر والمادة، وكان يرى أن سعادته تتحقق باستقرارها.

بدأت «**ليلى**» تخطو نحو هذا الطريق، فالسعادة ليست مالاً أو مناصب أو علاقات نافذة، وهذا ما أدركته ليلى أخيرًا.

في فجر جديد استيقظت وقت السحر، ووجدت نفسها مشدودة لسماع القرآن الكريم، وبعد أن قامت بأداء صلاة الفجر شعرت برياح طيبة تدخل من شرفتها، كانت ترى موجات من الأمل تلوح في الأفق، في صباح يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ شعرت أنها تتحرر من قيود الزمن، وكرهت أن تظل هكذا تلهث وراء المال، وجدت آمالها في المستقبل تتلاقى مع أحلام الأبرار.

وفي المساء تملكتها الرغبة في أن ترى غرفتها بمنزل العائلة القديم، فحملت عروستها القديمة معها في يدها، الحنين نحو الماضي جعلها تهرول وتتقلب بين حطام الذكريات، أدلفت الخطى تصعد السلم تنظر إلى كل الحوائط والدرج، كأنها تتحسس رائحة الماضي في كل شبر تمر عليه، وبعد دقائق وجدت نفسها في غرفة البنات، تحررت من ملابسها كأنها تحرر من وجع السنين، وتمددت على السرير فأسلمت نفسها للراحة، تحضن عروستها القديمة، نظرت إليها مبتسمة، قبلتها بحنان، نامت بعمق بعد أن ألقت كل الهموم من فوق عمرها المثخن بالجراح.

استيقظت في اليوم التالي تلتقطت بأذنيها موسيقى تنبعث من الخارج، تذكرت صوت ذلك العصفور الذي طالما كان يهمس مغردًا على بوابة أيامها الخضراء معلنًا قدوم الصباح الجديد، هرولت ببصرها نحو النافذة بشوق لرؤيته، فوجدت عصفورًا آخر يستقبل النهار بنفس الشقشقة، ويداعب الأيام بوميض من الأمل، أدركت أن لحن الزمن لن يتغير، وإن تغير العازفون فوق أوتار الحياة.

هنا انتبهت تفتش عن نفسها الحالمة في أرجاء جوارحها، فلم تجد ذاتها الفتية المتمردة التي تثير الدنيا كلما غدت أو راحت، صرخت بصوت مكتوم عندما اكتشفت أن «ليلى» البكر قد وئدت في «ليلى» العتيقة، تمددت تزيح الأيام الثقيلة من فوق صدرها، وتطلعت عيناها نحو الضوء القادم من كبد الحقيقة، نهضت تنظر في المرآة فوجدت تجاعيد وجهها أسفل خصلات شعرها الأبيض تخبرها أن قطار العمر على مشارف الوصول.

وبعيدًا عن غرورها القديم لفظت شبح السراب من أمامها، أطلقت روحها في الفضاء لتغرد من جديد، حتى وإن كانت موسيقى حلمها سوف تنبعث من قيثارة أخرى، وظلت تفتش عن السعادة بين بقايا حلمها، وتبحث عن راحة البال غير عابئة بأوهامها القديمة. فقد أدركت أن سر الحياة يكمن بين ثنايا الأمان.

عندئذ تجلى أمامها النهار في وسط الغرفة كأنه ملاك يرد على حديث الصبح بالأمس البعيد، وأردف قائلًا:

- النهار: لم تولد امرأة بعد تستطيع أن تقهر الزمن.

تحركت «**ليلى**» نحو برواز صغير على الحائط به صور أبويها، تخاطب صورة أمها تارة، وصورة أبيها تارة أخري، تنظر نحوهما بشغف وحب جارف، وتكلم الصور بحنين:

-**ليلى**: معذرة يا أمي، لم أفهمك في بواكير عمري،

كنت صغيرة، فلم أدرك أنكِ كل الحنان، تصورت بالخطأ أنني كنت نسيًا منسيًا، كان عليكِ أن تدركي حداثة سني، وعجز عقلي عن الإدراك، اليوم تطفو فوق الزمان الذكريات كأنها فراشة حالمة، تخاطب الضمائر من فوق مرارة الماضي أن تصحو، أتوسل من الأيام أن تزيح أطلالاً من ذكريات الألم المعتق بغضب السنين عن ظهري. (تلتفت لصورة أبيها) أنا أحبك يا أبي. ومازلت أذوب في الذكريات عشقًا، ليتني أجد حضنك الدافئ ليضمني من جديد. مازلت أحلم بأن تعود لمسات كفك لتهدهد أيامي الباقية، ربما عند المساء تصعد إليك أحلامي، فألقاك فوق سطح القمر، ليت صبحك يعود رقيقًا، فأقبض بيدي على أشعة الشروق، وأغرس النور بوجداني فأنير بقايا عمري بحبك العتيق. مازلت أسمع صوتك الحنون كأنه أهازيج الحمام تحلق فوق رأسي بأجنحة الأمل، سوف أغتسل بنور الحقيقة، وأحضن الرضا، لأشرب من فيض القناعة، فكل العطاء هو قلبك الكبير.

تمت بحمد الله

القاهرة ٢٠١١/٩/١٢

صلاح شعير
مواليد ١ / ٧ / ١٩٦٦
عضو اتحاد كتاب مصر
ماجستير في الاقتصاد

أولا : الأعمال الفكرية

-أصدر جريدة جماهير أكتوبر عامي ٢٠٠٩/٢٠١٠ وترأس مجلس إدارتها

- كتاب مدينة ٦اكتوبر والاقتصاد المصري ٢٠١١م .

- الطائفية و التقسيم - الهيئة العامة للكتاب- ٢٠١٤م .

- أنشأ مدونة صلاح شعير فبراير ٢٠١٥ م .

- كتاب حلم التكامل الاقتصادي بالعالم العربي - دار الجندي - ٢٠١٥م .

- الاقتصاد السياحي بالوطن العربي - النشر نور - ألمانيا فبراير ٢٠١٧ م .

-بناء الاقتصاد العربي - مركز الحضارة العربية ٢٠١٨م

- كتب الكثير من المقالات والدراسات بالعديد من الصحف الورقية والإلكترونية منذ/ ٢٠٠٣ - حتي تاريخه

ثانيا : الأعمال الأدبية

الروايات والقصة القصيرة

- الظمأ والحنين- أدب الخيال العلمي دار الجندي ٢٠١٦م .

- أحلام الملائكة- دار الجندي / ٢٠١٦م .

- أخلاق الفرسان - مجموعتان قصصيتان للطفل - ٢٠١٦م دار الجندي

- العنيدة والذئاب - دار مكتوب / دار يسطرون ٢٠١٨م .

المسرح العربي :

- وطن للبيع مجموعة مسرحية ساخرة- (وطن للبيع - عالم ستات - لصوص الرحمة) - دار الحضارة العربية ٢٠١٤ م .

- حرامي الفيل مجموعة مسرحية للطفل (وعد الحر - حرامي

الفيل- المفتري ندمان) دار الحضارة العربية ٢٠١٤م .

ثالثا: كتب الفنون والتراث: عبقرية النكتة المصرية- النشر نور- ألمانيا- مارس ٢٠١٧م .

رابعا الأفلام الوثائقية: تأليف فلم المقاتل الأسمر، إنتاج شركة فكرة، إخراج محمد فريح ٢٠١٧م.

تحت الطبع

- كفر الهوى رواية

- مسرح الفصحى للنصوص التالية : (أغصان العسل والصبار- أبواب الأمل- - بأمر نفسه - قلب جدبد).

- المسرح الإذاعي : الساحرة والحكيم .

- مسرح المونودراما : ليلة عاصفة .

- مسرح الطفل : مملكة الأسود - جزيرة الأرانب - تفاح و شطة.

- عامية مصرية - خيار وفقوس.

- الصناعة بالمدن الجديدة - التجربة المصرية : ١٩٨١/٢٠١١م .

- النهوض بالمدن المصرية الجديدة.

الجوائز :

- جائزة أفضل مقال صحفي عربي عن المرأة بالإقليم العربي - مركز الكوثر - تونس ٢٠١٥ م .

جائزة القصة القصيرة - المركز الرابع وزارة القوي العاملة المصرية عام ٢٠١٦م .

- قائمة أفضل عشرين نص مسرحي موجه للطفل للأعمال غير المنشورة - عن نص «مملكة الأسود» دولة الأمارات العربية - الهيئة العربية للمسرح ٢٠١٤ م .

Salah2fsh2@yahoo.com

الفهرس

١- أطلال الطفولة 5
٣- الحادثة 17
٤- القيد 23
٥- المساومة 29
٦- رنين الذهب 33
٨- الاستدراج 44
٩- الصعاليك والمال 51
١٠- شرارة الحب 56
١١- المأزق 62
١٢- ثمار الخريف 66
١٣- الخلاص 71
١٤- الاختيار 77
١٥- الانكسار 86
١٦- حافة الضياع 93
١٧- التحول 105
١٨- الهرم المقلوب 110
١٩- المعضلة الكبرى 117
٢٠- الإعصار 125
٢١- التصدع والضياع 134
٢٢- المصيدة 139
٢٣- المعركة 147
٢٤- الحب الكبير 157